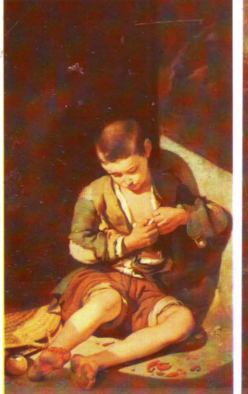
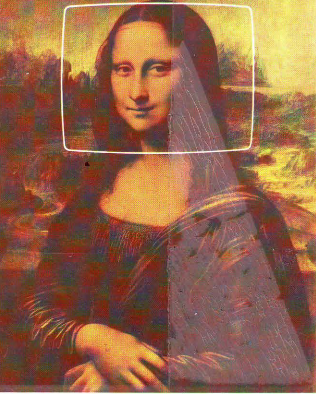
روائع الفن العالمى

خلاصة الفكر الإنسانى والإبداع العبقرى على مر العصور

جمال قطب

الطبعة الثالثة ٢٠٠٨



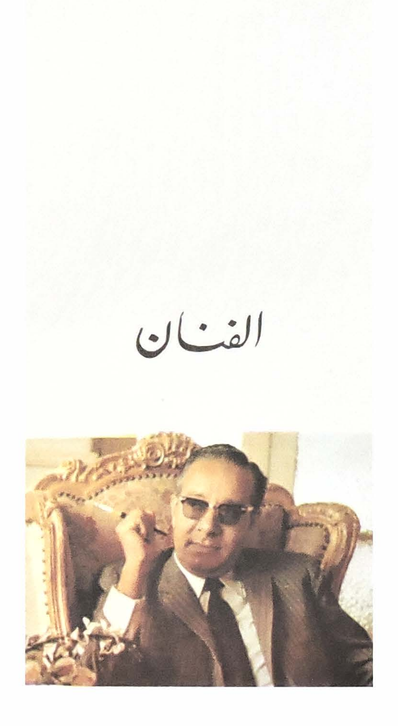




جمال قطب

- عمل رساما بدار الهلال ولم يزل طالبا بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، وبعد تخرجه اتسعت ممارسته الفنية فأصبح الرسام الأول لمجلات دار الهلال ، ثم المدير الفنى لها، بجانب كتاباته فى النقد والتذوق الفنى فى العديد من وسائل الإعلام .
- اشتهر بأسلوبه الخاص فى رسم أغلفة كتب كبار المؤلفين على اتساع الوطن العربى، وأغلفة كُتب مكتبة الأسرة ، وكذلك رسم صور الحرب واللوحات الحركية والأحداث الساخنة ، والصور الشخصية للمشاهير .
- قام بالعديد من الزيارات الدراسية لكثير من العواصم الغربية والشرقية .
- من أشهر لوحاته الإعلامية مُجلد (انتصار بورسعيد) الذى أصدرته مصلحة الاستعلامات فى أواخر الستينيات بعدة لغات عالمية ، وليه تسجيل حى باللوحات الفنية لأحداث الثورة المصرية ومعارك التحرير العربية . وقد عرضت هذه اللوحات فى معارض خاصة بالقاهرة والأقاليم فى شتى المناسبات الوطنية .
- كلف فى عامى ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ بعمل اللوحات التاريخية لمتحف «دارة الملك عبد العزيز» بالرياض .
- عمل خبيرا للفنون بدولة قطر ومحاضرًا بجامعتها فى التذوق الفنى منذ عام ١٩٧٩ حتى ١٩٨٦ فأسس المرسم الحر بالدوحة حيث تخرج على يديه المئات من الفنانين القطريين من الجنسين .. وفى هذه الفترة الخصبة امتدت نشاطاته الثقافية والفنية إلى المجالات العالمية ، فأسهم بكتاباته فى عدة صحف ومجلات عربية وأجنبية منها جريدة الهيرالد تربيون العالمية ، وكذلك سجل التراث الخليجى فى العشرات من اللوحات البانورامية الضخمة .
- من أبرز كتاباته فى الصحف العربية تلك الأبواب الثابتة فى كل من مجلة «الدوحة» القطرية تحت عنوان «روائع الفن العالمى» ، وجريدة «الرياض» السعودية فى عدد الخميس الثقافى ، حيث خصصت له صفحة كاملة على مدى خمس السنوات الماضية، ومجلة «الحرس الوطنى» السعودية تحت عنوان «الفن والحرب» ، ويوميات «الراية» القطرية .. عدا الكتابات المتفرقة فى مجلة الهلال ـ الأوبرا ـ العربى ـ المجلة العربية ـ الجوهرة ـ سيدتى ـ سطور ـ وغيرها .
- اشتهر برسم الصور الشخصية «البورتريه» للملوك والرؤساء وكبار الشخصيات، ومنها صورة الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا التى تحتفظ بها فى مجموعتها الخاصة .
- حصل على الجائزة الأولى الممتازة من وزارة الثقافة (الهيئة العامة لثقافة الطفل) على لوحات كتب الأطفال .
- يعمل حاليا أستاذا بأكاديمية الفنون للنقد والتذوق الفنى وتاريخ الفن .
- يعد برنامجا أسبوعيا فى التليفزيون عن الفن العالمى تحت اسم (أتيليه) على القناة الثانية والقناة الثقافية ، وكذلك العديد من اللقاءات الفنية على مختلف القنوات فى التليفزيون والإذاعة .
- حصل كتابه «ملهمات المشاهير» على جائزة معرض القاهرة الدولى للكتاب ، والكتاب هو أحد مؤلفاته الفنية الموسوعية التى صدرت فى الأعوام الماضية .
- عضو اتحاد الكتاب .

الفنان





خلاصة الفكر الإنسانى والإبداع العبقرى على مر العصور

جمال قطب

دار مصر للطباعة
٣٧ ش كامل صدقى - القاهرة
ص ب ١٦ - الفجالة



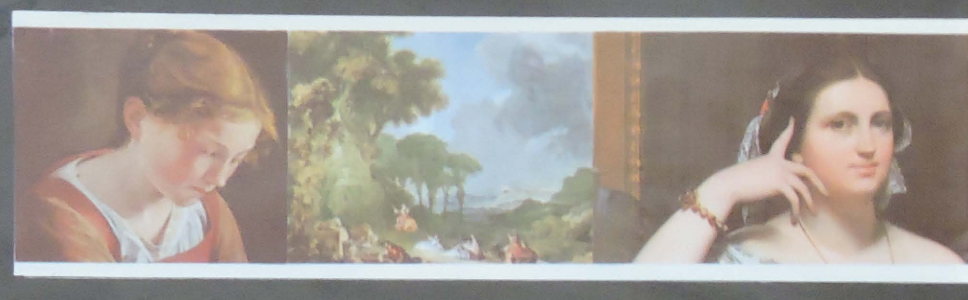


ومضات هادية آملة فى سباق المواهب المتألقة والقرائح المبدعة ، وآيات خالدة فى كنوز التراث الإنسانى من روائع العبقريات الملهمة، كما أنها اللمسات الحانية المرهفة التى تداعب العواطف وتثير الخيال وتخاطب العقول وتمسُّ شغاف القلوب . . .

هذا هو الكتاب الثانى (روائع الفن العالمى) ، بعد أن سبقه فى هذه السلسلة الفنية كتابنا الأول (الفن والحرب) .. على نفس المستوى من الطباعة الراقية والإخراج الأنيق بما يتناسب مع معطيات الفن الجميل . وقد نشرت معظم محتويات هذا الكتاب فى العديد من المجلات والصحف العربية والعالمية فى السنوات الأخيرة ، وقد أعيدت صياغتها بما يلائم جمعها فى مرجع واحد مزود باللوحات الفنية النادرة .

وعندما هممت بالإعداد لهذا الكتاب ، وضعت نصب عينى حاجة القارىء العربى الذى يُعنى بالثقافة الفنية إلى مثل هذه المعلومة المحققة الميسرة ، والصورة الفنية المقدمة على أحسن مستوى من الإخراج والطباعة ، فى عصر تتنافس فيه دور النشر العالمية على إغراق المكتبات فى شتى أنحاء المعمورة بالكتب والمراجع الفنية الأنيقة . وقد ساهمت تكنولوجيا العصر فى فن الطباعة المتقدمة فى إخراج تلك المطبوعات الأجنبية على أجمل وأروع صورة ممكنة ، مما جعل منافستها أملاً بعيد المنال !

وإذا كانت الفنون الجميلة تنفرد بهذه الصفة الجمالية عن سواها من باقى فروع المعرفة ، فما أحرانا لأن تتصف مساهماتنا فى مجال الفن المطبوع بالجمال كذلك .. ولكن ، لكل شىء

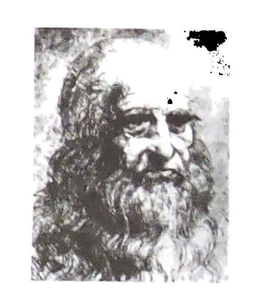


تكاليفه وتبعاته ، وهذه هى المعادلة الصعبة فى عالم اليوم ؛ فالأهداف النبيلة ، والطموحات الآملة ، والتطلعات إلى الأحسن والأكمل ، لا بد وأن تترجم على أرض الواقع إلى جهد وعرق ومال وتضحيات .. قد تنوء بحملها كواهل الناشرين والفنانين وطلاب الثقافة !

ومن أجل هذه الأسباب ، لم نجد فى المكتبة العربية كتابا واحدا فى مجال الفنون الجميلة ، ينافس مثيله الأجنبى من دور النشر العالمية ! ذلك لأن المؤسسات العالمية تطبع الكتب وتوزعها بالملايين ، أما قراء العربية ممن يعنون بهذه التخصصات الراقية ، فهم قليلون إن لم يكونوا ندرة ضئيلة فى معظم أوطاننا العربية ! وبالتالى ، تتحمل النسخ العربية المحدودة من الكتب الفنية عبئا ماديا ثقيلا هو تكاليف الطباعة الملونة — وقد وصلت أثمانها إلى أرقام فلكية — والورق الممتاز والتجليد والإخراج الأنيق . وإذا كانت الكتب الأجنبية قد وصل ثمن الكتاب الواحد منها إلى عشرات الجنيهات ، بل إلى المئات فى بعض الأحيان ، فإننا — بحكم مراعاة مقتضى الحال والقوة الشرائية لمواطنينا — عزمنا على أن نُسهم بالنصيب الأوفر فى تحمل الأعباء التى ذكرناها ، غير عابئين بالتضحيات المادية ، طالما حرصنا على أهدافنا الإنسانية الخيِّرة من هذه التجربة الرائدة ، وأننا نتعامل مع أسرتنا الفنية بضمير الفنان ووجدانه .. فى عصر تحكمه الأرقام ، وتسيطر عليه سطوة المال وأسباب التكسب وفنون الاتجار .. وتخبو فيه جذوة الفكر الإنسانى الرفيع !

وبعد هذه التقدمة التى هى واقع نعايشه ونكابده ، بينما يحدونا أمل متفائل نرجو أن نحققه .. لنسبح معًا فى أجواء الفن الجميل .. ونمتع أبصارنا وبصائرنا بإيحاءاته وعوالمه المثيرة فإنها منارات مضيئة فى مسيرة البشر عبر قفار الحياة الموحشة .

المؤلف



الابتسامة الغامضة وخلود العبقرية

فى عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك وانهارت الدولة البيزنطية .. وكان هذا الحدث الهام رمزا لنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . وقبل ذلك بعام واحد ، أى سنة ١٤٥٢ ولد ليوناردو دافنشى وقد وصفه المؤرخون بأنه رائد الأسلوب الجديد فى فن التصوير فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر .

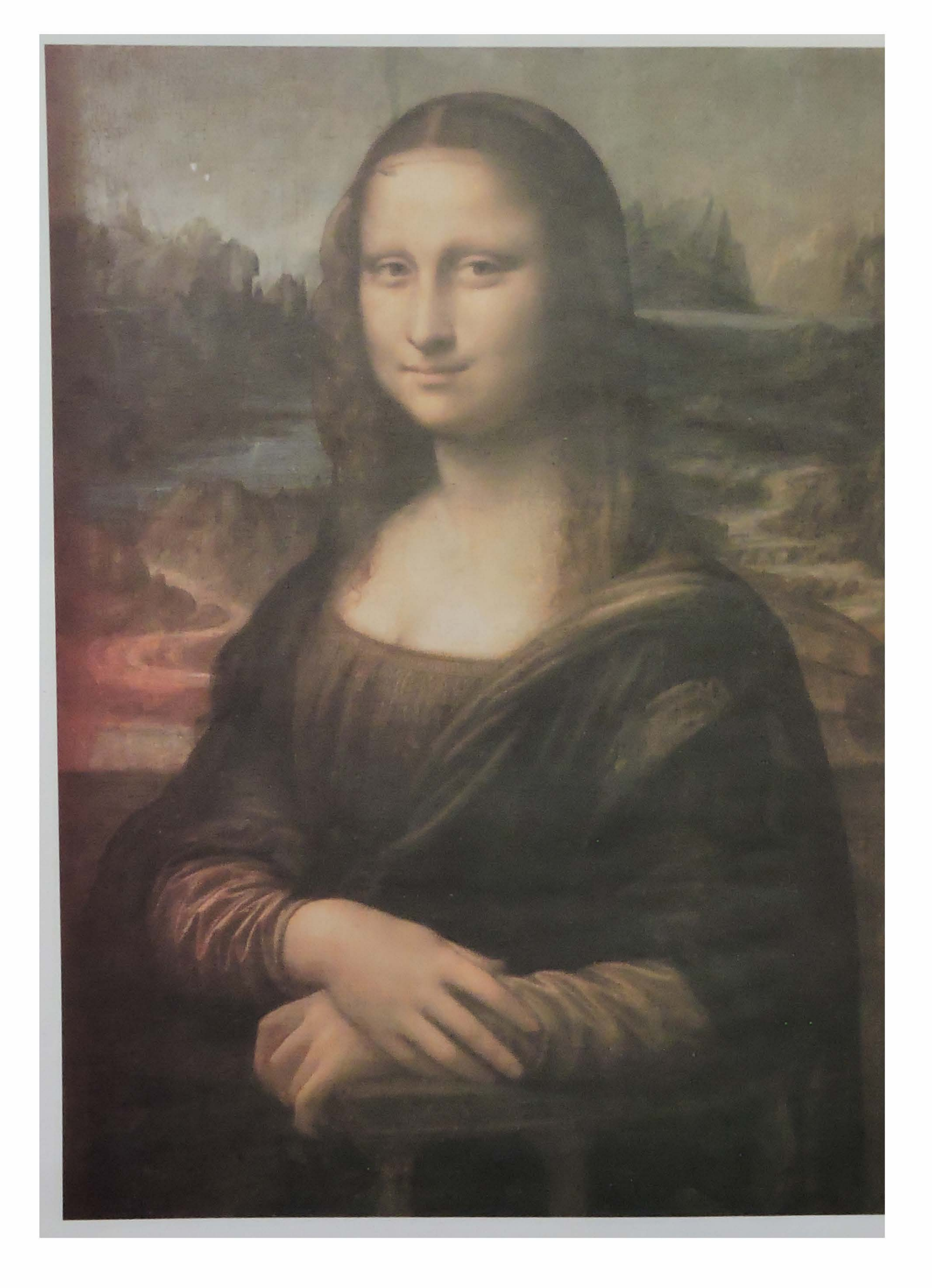
وفى الحقيقة إن ما نعرفه عن حياة الفنان الأسطورة .. يعتبر قليلا جداً بالنسبة إلى ما خفى من سيرته الغامضة . وقد اعتاد أن يدون مذكراته وخواطره وآراءه وبحوثه المختلفة فى كراسات ووريقات مبعثرة ، على أمل جمعها وتصنيفها بعد ذلك .. ولكنها تشتت إثر وفاته فى عام ١٥١٩ ، وضاع معظمها ،وإننا لنعجب ونتعجب من هذه العبقرية الفذة عندما نتدارس مذكراته تلك ، فنراه قد لمح بفكره الثاقب كثيراً من النظريات التى أثبتها العلماء بعد ذلك ، مثل نظرية دوران الأرض حول الشمس ، ونظرية (نيوتن) فى الجاذبية ، ونظرية (وليم هارفى) فى الدورة الدموية .. كما أنه سما بخياله وثاقب فكره فصمم بعض المخترعات التى تحققت بعد ذلك بمئات السنين مثل الطيارة والغواصة والدبابة والقنابل المشحونة بالغازات السامة !

وكان منهج ليوناردو فى البحث يختلف كل الاختلاف عن المثقفين فى عصره .. فهو لم يأخذ بالنزعة المثيولوجية ، ولم يحاول قط الرجوع إلى فلاسفة الإغريق أو الرومان .. وإنما اعتمد على التجربة الحسية المباشرة بعيداً عن كل نظرة ميتافيزيقية : فنراه يقوم بنفسه بتشريح جسم الإنسان ، ويراقب حركات الطيور فى طيرانها ، ويدرس هبوب العواصف وتلاطم الأمواج وتجمع السحب ، كما ينكب على علوم الهندسة والمنظور والميكانيكا .. وغير ذلك فى دأب وتفهم ، ويسجلها فى رسوم دقيقة تدل على قوة الملاحظة . أما فنه ، فقد اعتمد على تجربته الباطنة الخاصة ، وبصيرته ذات الرؤى العجيبة ، وهى التى أضفت على لوحاته غلالة من السحر والإثارة المبهمة ، فبدت مجسماته فى بروز لطيف رقيق ، وكأنها خارجة من عالم غامض مجهول !.

أما لوحتنا فى هذا اللقاء فهى أشهر لوحاته — إن لم تكن أكثر اللوحات العالمية شهرة على الإطلاق — الجيوكوندا أو الموناليزا (أى السيدة ليزا) وهى صاحبة التحفة الخالدة . رسمها ليوناردو دافنشى فى نحو أربع سنوات بدأها فى عام ١٥٠٠ .. وانتهى منها عام ١٥٠٣ وخرجت معجزة فنية بكل المقاييس ، ولا شك أن صلة وثيقة كانت تربط الفنان بهذه الفاتنة وبزوجها التاجر الفلورنسى (فرانسسكو دى بارتولوميو دل جيوكوندو) .. مما جعل ليوناردو يعكف على هذه اللوحة سنوات أربع ، ويعتز بها كل هذا الاعتزاز !

وقد كتب عن الجيوكوندا ما لا يمكن حصره من التحليلات والآراء والتقييم الفنى ، واعتبرها الفنان نفسه أروع ما أبدع فى حياته ، حتى أنه كان يحملها فى أسفاره دون غيرها من اللوحات ، خوفا عليها من تركها فى مرسمه فى فلورنسا مع باقى لوحاته الأخرى .

والحق أنها آية فريدة فى نوعها من آيات الفن الرفيع .. وهى ليست مجرد صورة شخصية لامرأة معينة ، ففيها التقت الرؤية بالرؤيا ، والحقيقة بالخيال ، كما التقت أغوار النفس بأسرار الطبيعة .. نقف مبهورين أمامها .. فنحتار فى وصف الابتسامة الملائكية أو الشيطانية ، وهاتين العينين الساحرتين ذواتى النظرات الهائمة الوادعة الحالمة .. لم نستطع أن نحدد عمر ليزا وقت أن أبدع لها الفنان صورتها .. رسمها فى أربع سنوات .. فأسقط عن ملامحها معالم الزمن وبصمات السنين .. إنها ترتسم فى مخيلتنا كأسطورة رائعة ، تتراقص كأطياف سحرية تسرى فى وجداننا بأنغام من الهمس الشاعرى ، يخرج من بين شفتيها المطبقتين على أسرار الفتنة الغامضة .

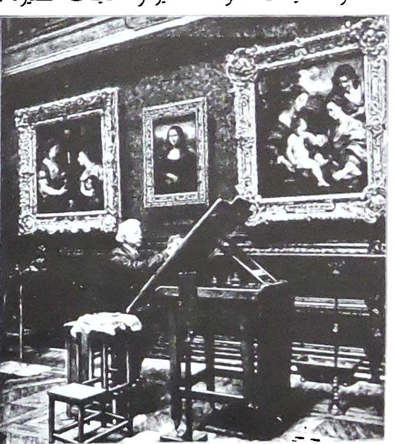


موناليزا بين الأصل والتقليد

وفى متحف اللوفر بباريس .. حيث تستقر تحفة ليوناردو دافنشى الخالدة .. « الجيوكوندا أو الموناليزا » ، يتزاحم المئات كل صباح حول أشهر لوحة فى العالم ، ويقفون أمامها صامتين ساهمين وقد علقت أبصارهم بابتسامتها الغامضة ونظراتها الساحرة .. وبين الفينة والفينة ، يسرى همس كصوت النسيم بين الحضور .. فيه التساؤل وفيه المناجاة واجترار الذكرى وتمجيد العبقرية ..

أما التساؤل ، فمبعثه ما تطالعنا به أجهزة الإعلام من حين لآخر عن اكتشاف لوحة جديدة للموناليزا فى هذا المكان أو ذاك ، بل وتتمادى وكالات الأنباء العالمية فى سرد المزيد من التفاصيل مؤكدة أن (الخبراء) بعد البحث والتدقيق يرون أن اللوحة من إبداع فنان عصر النهضة الإيطالى الأشهر : ليوناردو دافنشى ! وسرعان ما تخبو جذوة الدعاية لهذا الحدث .. وتتراجع كل التأكيدات لتصبح مجرد ظن أو حدس .. ثم يطويها النسيان ، وتبقى الحقيقة الرائعة المتربعة فى أروقة متحف اللوفر ، تضفى على الفكر الإنسانى ثوب العبقرية الملهمة !

.. وقد حيكت حولها أساطير وحكايات كثيرة ،



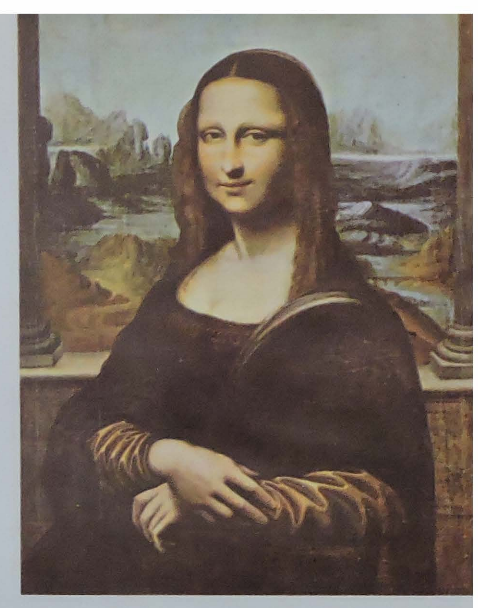
من المشاهد المألوفة فى متحف اللوفر أن نجد الفنانين وقد انهمكوا فى تقليد الجيوكوندا وهذا التقليد متبع فى متاحف العالم لنقل اللوحات العالمية فى دراسة عملية متأنية .. وهكذا نجد كمًا هائلًا من الأعمال المقلدة لمعظم اللوحات الشهيرة على مر السنين !

وسجلت فى الآلاف من القصص والأشعار والمسرحيات ، كما ظهرت عنها « أوبرا الموناليزا » الشهيرة .. وذاعت شهرة اللوحة حتى غمرت أرجاء المعمورة عندما سرقت من متحف اللوفر عام ١٩١١ ، وبذلك شغلت أجهزة الأمن فى العالم لسنتين كاملتين حتى عادت لتحتل مكانها ومكانتها فى المتحف الكبير !

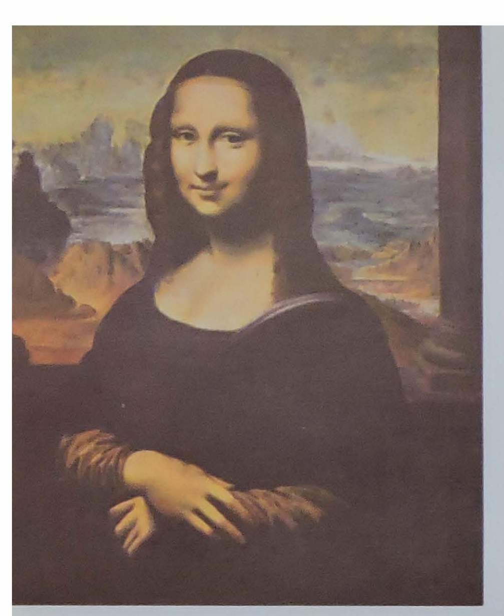
ولم يثبت على الإطلاق أن الفنان قد رسم أية لوحات أخرى للموناليزا ، ولم يرد عن ذلك شىء فى مذكرات دافنشى التى كان يدونها مفصلة كلما انغمس فى عمل جديد ، كما لم نقرأ مثل هذه المعلومات فى كتب التاريخ ولم نسمع عنها من أقوال معاصريه .

إلا أننا نلاحظ حشداً هائلا من اللوحات المقلدة للوحته الأصلية ، ولا يخلو عصر من العصور — منذ أن رسم دافنشى تحفته الموناليزا — من أعمال مقلدة لروائع الفن العالمى لكبار الفنانين ، ولا سيما للوحة الجيوكوندا كأشهر لوحة فى التاريخ !

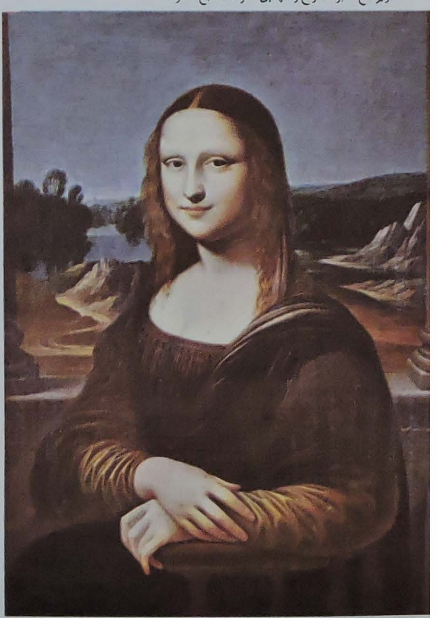
تلك اللوحة التى انتهى بها المطاف حتى استقرت فى القصور الملكية الفرنسية فى عهد الملك فرنسيس الأول عندما استدعى دافنشى لتزيين القصور المكية الفرنسية بإبداعاته عام ١٥١٦ ، وبعد أحداث وأحداث استقرت فى متحف اللوفر . واليوم يرى القارىء على هذه الصفحات لوحات الفنانين الذين قلدوا الموناليزا .. ولكننا إذا أمعنا النظر فى هذه اللوحات المقلدة ، لرأينا الفارق الجوهرى بين الأصل والتقليد . وكلما اكتشفت لوحة جديدة من هذه اللوحات المقلدة ثارت حولها الحكايا والظنون التى قد تصل إلى درجة الاعتقاد الراسخ من البعض بأنها من أعمال الفنان .. وتعاد الكرة من حيث بدأت وتتبدد الظنون وتنجلى الحقيقة ولا تبقى فى الأذهان والوجدان إلا التحفة الخالدة ، ذات الابتسامة الغامضة والنظرات الساهمة الحالمة .. هناك فى إحدى القاعات بديوان الفن العريق .. فى متحف اللوفر .. حيث اختصها بقاعة تتربع فيها وحدها .



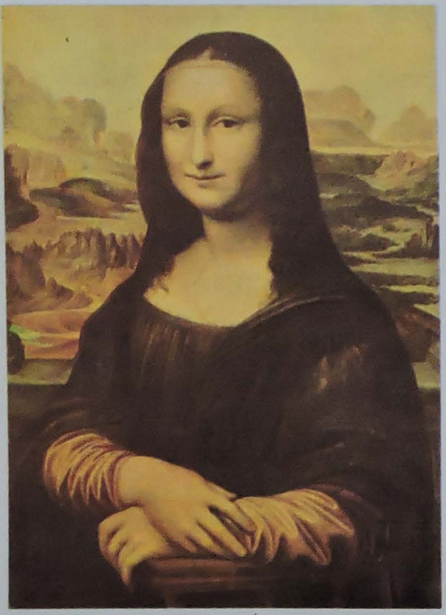
إحدى النسخ المقلدة للجيوكوندا ، وهى مقتنيات متحف والترز جاليرى — بالتيمور ، ويرجع الخبراء تاريخ رسمها إلى القرن السابع عشر .



وهذه اللوحة من مقتنيات مجموعة فيرنون بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقد قدرت بأكثر من مليونين ونصف مليون دولار .



أما المتحف الوطنى بالعاصمة النرويجية فقد تضم هذه اللوحة المقلدة للموناليزا ، وهى موقعة باسم الفنان الذى رسمها (فيليب شامبانى) .



وفى روما نجد هذه اللوحة بأحد قصور الدولة وهى موقعة باسم (برناردينو لوينى) ، وكان أحد تلاميذ ليوناردو دافنشى .

جمال الطبيعة وعبقريات الشمال

●● بلاد الفلمنك هى الممالك المنخفضة فى شمال أوروبا وهى هولندا وبلجيكا بصفة أساسية ، ونظرا لانخفاض أرضها عن سطح البحر يطلق عليها البلاد المنخفضة أو الواطئة . والمتتبع لهذه المقالات ومن خلال ما نورده فيها من معلومات ، يجد أن الفن الإيطالى كان ترجمة للدين والآداب .. كما أن الفن الأسبانى كان محصورا داخل قصور الملوك والأمراء ، بينما نجد أن الفن الفرنسى كان فنا أكاديميا خالصا .. وفنون إنجلترا نلمح فيها النزعة الأرستقراطية .. ولذا ، فقد كانت تعرف بأنها فنون الطبقة الرفيعة ..

أما فى الممالك المنخفضة ، فقد كان فن الطبقات الوسطى ، وله ملامح مميزة أهمها الانطلاق والابتهاج بمحاسن الطبيعة والمناظر الريفية بثرائها وخيراتها وجمالها المثير ! ذلك لأن بلاد الفلمنك كانت قد انشقت على الكنيسة الكاثوليكية ، وأصبح فن التصوير حراً من القيود الدينية ، على عكس فنون عصر النهضة الإيطالى مثلا .. فاتجه الفنانون تبعا لذلك إلى الطبيعة يستلهمونها فى أعمالهم .. وإلى مكامن الجمال حيثما تكون .. وأصبح الطابع الوجدانى يضفى على لمساتهم إحساساً بالرقة والازدهار وبريق الألوان وبهجة الحياة والتغنى بجمال بلادهم .

وفى عام ١٣٦١ حكم فرنسا الملك (جين لى بون) فورث بذلك دوقية (برجاندى) ، ونصب عليها ابنه (فيليب هاردى) الذى تزوج من (مرجريت) أميرة بلاد الفلاندرز .. وبذلك اتحدت كل من الولايتين (برجاندى وفلاندرز) ، واستمر هذا الاتحاد مدة طويلة .. وكان من الطبيعى أن تتوطد العلاقات بين هذا الاتحاد وبين فرنسا وإيطاليا .. وظهر كثير من عباقرة الفنانين الفلمنك من الذين رحلوا إلى مختلف بلاد أوروبا ولا سيما فرنسا وإيطاليا .

ونأتى إلى عهد (شارل الخامس) ملك فرنسا فنجده يجمع هؤلاء الفنانين من حوله ويزدهر فن التصوير المصغر الذى يعرف عالميا باسم miniatures أو المنمنمات بصفة خاصة .. بجانب التصوير الزيتى الذى كان فنا ناشئا فى القرن الرابع عشر .. ويرجع إلى الفنانين الفلمنكيين ، الفضل فى اكتشاف وابتكار الألوان الزيتية ... وقد نسب إلى الشقيقين (فان ايك) أنهما طورا الرسم بالزيت وتوصلا إلى معرفة المواد التى ساعدت على سرعة جفاف الألوان وسهولة استعمالها واستدامة بهائها وحسن مظهرها .

ومن مآثر الفلمنكيين كذلك الرسم على زجاج النوافذ .. وساعد على تألق هذا الفن طبيعة الجو الملبد بالغيوم معظم أيام السنة .. فاعتبرت النوافذ لوحات دائمة مضيئة يزيد من جمالها الضوء الخافت الذى ينفذ من خلالها .

●● ولننظر إلى لوحتى (ألبرت كويب) رسم فيهما الطبيعة الخلابة بسمائها ذات السحب المتراكمة وأضوائها المتلألئة فى الأفق وانعكاساتها الساحرة على الماء والتلال الخضراء .. والوداعة الريفية المتمثلة فى حياة الرعى والطرب والبساطة والانطلاق .. ولكن أهم ما يميز فن « كويب » هو ولعه بتصوير الماشية ، فلم تخل له صورة منها . وأصبح اهتمامه الأول فى لوحاته هو رسمه لهذه الماشية التى برع فيها أيما براعة !

وتحتفظ متاحف العالم حاليا بلوحات ألبرت كويب (١٦٢٠ — ١٦٩١) كقمة من قمم الإبداع العالمى فى رسم الماشية والمنظر الطبيعى التقليدى الذى يمثل كلاسيكية القرن السابع عشر فى المدرسة الفلمنكية !

وقد أجمع النقاد والمؤرخون على تمجيد أعمال كويب .. إلا أننا نقرأ لناقد فنى شهير هو الدكتور (فدر) قوله اللاذع عن رسم الماشية فى لوحات الفلمنكيين :

« إنها هولندية لحما ودما لأنها خاملة لا تعرف الجهاد ، ولأنها لا ترى إلا وهى إما تمضغ وتجتر ببلادة ، أو ترقد فى سبات عميق » !

وقد يكون هذا وصفا صادقا للثيران والأبقار .. ولكنه بلا شك هجاء فى غير موضعه موجه للشعب الهولندى النشيط .. ذلك الشعب الذى يقتطع من أرضه بعض التراب مبللا بعرقه ليردم به البحر حتى تتسع أمام طموحاته سبل الكفاح والعمل الدائب الذى لا يعرف التواكل أو التكاسل أو الخمول ؟

جويا ... العبث والنبوغ والالتزام

كان يرسم بالنهار ، ويعربد فى الليـل ، ويصارع الثيران فى أيام الآحاد والأعياد ، ويغنى ويرقص ويبـارز بالسيف فى مشاجراته الشرسة المستمرة !

إنه فنان أسبانيا الكبير فرانسيسكو جويـا Francisco Goya . سبق عصره بنحو مائة عام .. ويروى عنه أنه قال مرة :

« إن الأساتذة يتحدثون دائما عن الخطوط والألوان ! إننى لا أرى خطوطا ولا ألوانا فى الطبيعة ، وإنما أرى أضواء وظلالا فحسب » !

ولا شك أن الدارس لتطور الفن وكيمياء الألـوان والأبحاث التالية فى علوم الضوء .. يدرك تماما قيمة رأى جويا ، إذ ثبت علميا (بعد ذلك بنحو مائة عام) أنه لا جود للون إلا من حيث الضوء . وقد أخذ التأثيريون فيما بعد بنظريات « جويا » فى كل ما يتعلق بكيمياء الضوء وعلوم البصريات ؛ وظهرت (التأثيرية) بعد وفاته بأربعين عاما مبنية على هذه الأسس !

وتجلت عبقريته كذلك فى نهجه السيريالى قبل ظهور السيريالية بأكثر من مائة عام .. فقد اعترته حالة نفسية رهيبة أصابته بالانطوائية والاكتئاب فى آخر أيامه بعد أن فقد سمعه وضعف بصره ، فعكف على رسم مجموعة من لوحاتـه الشهيرة بطابع سيريالى محض .. ما زالت حتى اليوم موضع حيرة واستغراب لنقاد الفن والمحللين النفسيين !

والمتتبع لعالم الفن الجميل وآفاقه الرحيبة ، يكشف عن مفارقات غريبة فى تكوين الشخصية الفنيـة مـن خـلال مراحلها وتطورها عاماً بعد عام . فعندما تتضح معالم هذه الشخصية المميزة فى نهاية الأمر ، فإنما هى محصلة العديد من التجارب والممارسات والتأثيرات ، كالنحلة عندما تجتذبها مئات الزهور من كل نوع ولون . ترتشف رحيقها ، ثم تفرزه عسلاً صافياً من صنعها ولا أثر فيه لزهرة بعينها دون أخرى ! وهكذا الفنان فى بدايته الأولى ، ينجـذب إلى إبداعات الأقدمين والمعاصرين ممن شغف بعبقرياتهم .. يقلد هذا ، وينقل عن ذاك ، ويدرس ويتمعن ويستخلص ما يروق له من أعمال الآخرين ، إلى أن تتضح السبل أمامه .. وتتبلور شخصيته المميزة .

وفناننا جويا (١٧٤٦ ــ ١٨٢٨) الذى عاش حتى بلغ الثالثة والثمانين من عمـره ، وعـاصر فتـرات الصراع والتحولات الفنية والسياسية فى أسبانيا ، نراه وقد مرّ على نفس التجارب والممارسات ، حتى أصبح الفنان العـالمى الذى دخل تاريخ الفن كأحد الروّاد الكبار فى مسيرة الإبداع الإنسانى الرفيع !

مارس جويا فى صباه وشبابه المبكر كثيراً من الأعمال اليدوية الفنية كزخرفة الستائر والتحف الخزفية والطنافس ، وكان يقلـد مـن سبقـوه فى رسم الأساطير القـديمة والميثولوجيات الإغريقية على طريقة فنان الشمال الأوروبى الشهير (روبنز) . وظل غارقاً فى هـذه الأساليـب الرومانسيـة الحالمة حتى ذاعت شهرتـه بين الطبقـات الأرستقراطية الموسرة ، فأغدقت عليه من مالها وسلطانها ما جعله يتسلق إلى البلاط الأسبانى وتتوثق عرى الصداقة بينه وبين شقيق الملك شارل الثالث ، وكان يجمع بينهما جموح العبث وطيش الشباب وجنون المغامرات المثيرة ! ويوماً بعد يوم تجلى نبوغه فى الفن ، فأصبح مرسمه مقصداً ومطمحاً للوجهاء من علية القوم وفاتنات المجتمع ، علهم يحظون برضاء جويا بأن يجلسوا أمامه ليرسم صورهم ! وعندما توفى الملك شارل الثالث ، وتولى شقيقه حكم أسبانيا تحت اسم شارل الرابع ، بادر بتعيين صديقه ورفيق مغامراته جويا ، رساماً للبلاط .. وعندئذ تبدأ أهم مرحلة فى حياة جويا ، حيث بلغ الذروة فى فنه ، كما بلغ فى الوقت ذاته الحد الأقصى فى سلاطته وتهوره !

وكانت أسبانيا فى ذلك الوقت (أواخر القرن الثامن عشر) تعيش عصر الفساد والانحلال ، وقد عاشر جويا شتى طبقاتها : شعبها الذى طحنه الفقر ، وشبابها المحروم ، وفتياتها الضائعات ، وها هو ذا الآن يخالط أفراد البلاط



جويا : صورة رسمها لنفسه عام ١٨١٥



الأسبانى وحاشيته الأرستقراطية الباذخة ، وتترسب فى ذهنه ووجدانه من كل ما يراه .. صورة قاتمة مهينة تثير اليأس والسخرية ! وهنا تأتى مرحلة النضوج الفكرى واستيعاب هذه المؤثرات المتناقضة فى بصيرة الفنان ، فيرسم اللوحات الملكية الساخرة التى تعلق فى أروقة القصور والمتاحف ، وكأنها هجاء لاذع ولعنة على العبث والرذيلة المقنعة المحصنة خلف الأسوار العالية !

ومن الغريب والعجيب ، أنه بقدر ما كان يقسو فى هجاء سادته فى لوحاته ، بقدر ما كانوا يغدقون عليه ويبذلون له العطاء ، وبخاصة السيدات منهم ، كمن يرشو ويحاول جاهداً أن يستميل من يعرف سره ونقائصه وخباياه حتى يسكته أو يأمن جانبه أو يروّضه إذا استطاع !

واستبد اليأس والغضب بالفنان ، وكان لا بد له من متنفس يصب فيه جام سخريته على الناس والمجتمع وحتى على نفسه كذلك ! فعكف جويا على مجموعة لوحات حفرها على النحاس « تُعرف باسم لوس كابريكوس Los Caprchos كانت من أروع وأصدق مارسمه فنان عالمى فى التاريخ ، جسد فيها انحلال المجتمع الأسبانى ، مجتمع العبث والشهوات والضياع !

وفى عام ١٨٠٨ اقتحم الفرنسيون الأرض الأسبانية ، وشهدت البلاد ويلات الحرب ووحشية الغزاة والتنكيل والمجازر ، وظهر جويا ، فنان أسبانيا ، كمواطن غيور يذوب فى حب وطنه ، فأخرج مجموعته الثانية المسماة (كوارث الحرب) ، ثم أردفها بمجموعة ثالثة من اللوحات تعرف باسم (فظائع الحرب) ، جمع فيها جويا كل خبرته وتجاربه وعبقريته .. ولذلك ، فلا غرو أن تصبح هذه اللوحات الملحمية الرومانتيكية الرهيبة ، بمثابة صيحة وعى وزفرة ألم وصحوة ضمير تستعر هائجة فى وجه القهر والظلم والتسلط !

ودارت الأحداث الرهيبة ، وجاء نابليون بنفسه ليقمع ثورة الشعب الأسبانى عقب تنصيب شقيقه جوزيف بونابرت على عرش أسبانيا . ولسبب لا ندريه ، وبالرغم من أن لوحات جويا كانت أقوى سلاح ضد الغزاة الفرنسيين ، فقد ظل جويا فى منصبه رساماً للبلاط تحت الحكم الفرنسى ! وكان طبيعياً أن يحنق عليه الشعب الأسبانى ، ويطالب برأسه بعد أن انقشعت غمامة الغزو وعاد فرديناند السابع إلى حكم بلاده بعد سقوط نابليون ، ولكن فرديناند استحضر جويا إلى مجلسه وقال له : « إنك تستحق النفى ، بل تستحق الشنق ، ولكنك جويا .. فنان أسبانيا العظيم ، لذا سأنسى كل ما فات .. وستظل فى مكانك ومكانتك .. » !!

غير أن جويا كان قد برم بحياة القصر والشهرة والأضواء والمغامرات ، فانطوى على نفسه فى بيته يرسم آخر لوحاته بأسلوب سريالى متشائم ، ثم رحل إلى مدينة بوردو الفرنسية ، حيث وافته المنية وهو معتل الصحة كليل البصر زاهد فى الحياة ، ولفظ آخر أنفاسه هناك بعيداً عن وطنه وهو فى الثالثة والثمانين من عمره الزاخر بكل صنوف الحيوية والعطاء .

ومن خلال هذا الجو الدرامى الذى عايشنا من خلاله حياة جويا المفعمة بالأحداث والنزعات والنزوات والخطوب والشجون .. نرى على هذه الصفحات بعضاً من إبداعاته فى مراحل فنية متفاوتة .

المظلة

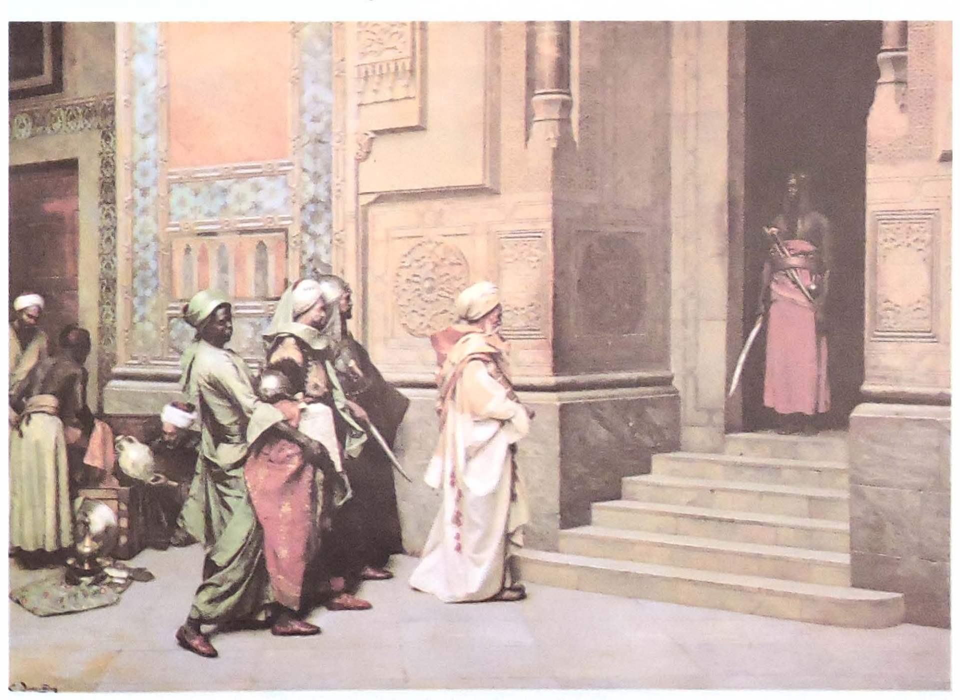
لوحة جويا الشهيرة (الثانى من مايو) .. وتعتبر من أكثر اللوحات العالية ذات التأثير الدراماتيكى المروع . كـ سجيل مأساوى للحرب الأسبانية والمقاومة ضد الهجمة الفرنسية الشرسة

شرقنا العربى فى أثوابه الشاعرية

الطابع الفنى الشرق .. فنون المستشرقين .. استلهام الشرق فى روائع الفن الغربى .. أو ما يعرف عالميا باسم Orientalism كلها أسماء لمسمى واحد هو روائع حركة الاستشراق الفنى العالمى الذى تمثل فى هجرة الفنانين والشعراء والكتاب الأجانب إلى بلادنا العربية ، ولا سيما مصر وبلاد شمال افريقيا (وبخاصة المغرب) يستلهمون إيحاءاتها الساحرة وطبيعتها الخلابة الوادعة .. وقد وصلت هذه الهجرة الإبداعية إلى ذروتها فى القرن التاسع عشر ، وانحسرت مع إطلالة القرن العشرين شيئاً فشيئا حتى تلاشت تقريباً عام ١٩١٠ ، قبيل الحرب العالمية الأولى التى جثمت على بصائر المبدعين وكتمت أنفاس الرومانسية باندلاعها عام ١٩١٤ .

وقد طلع علينا القرن العشرون بشحناته الانفعالية وأفكاره العقلانية وتعقيداته الفلسفية ، مما أسبغ على حركة الفن أنماطاً ونزعات ذاتية تواكب تأثيرات الحرب والاكتشافات العلمية والصناعية الصاخبة ، فرأينا المدارس الفنية التى تعتمد على الأبحاث الذهنية وعوالم التكعيب والتجريد وغياهب الأحلام واللاشعور فيما عرف بالسيريالية التى تلجأ إلى علوم النفس والأحلام وما وراء الطبيعة . وبذلك توارت النزعات الرومانسية والجماليات الشكلية والإبهارات البصرية الشاعرية .

وربما يعود ازدهار حركة الاستشراق الفنى هذه ، إلى الدعوة التى نادى بها مشاهير الكتاب والشعراء الأوروبيين فى القرن التاسع عشر من أمثال (شاتوبريان) الفرنسى ، و



زوار قصر الحاكم بالقاهرة (للفنان شارل ويلدا) رسمها عام ١٨٨٤



القنص بالصقور في الصحراء (للفنان ألبرت باسيني) ١٨٢٦ ــ ١٨٩٩

سحب مركب على شاطئ النيل (للفنان فردبك آرثر) .



(بايرون) الإنجليزى و (جوته) الألمانى .. وقد تـرك الثلاثة بلادهم ، ونزحوا إلى الشرق العربى مستلهمين طبيعته الجميلة الوادعة ، ووقع الحياة الهادئ الرصين .. وقد ذهلوا بما شاهدوا من كنوز التراث وأصالة العادات والتقاليد ، فسخروا أقلامهم لدعوة الرومانسية فى العالم لزيارة الشرق ، مؤكدين على تمجيد حياة الفطرة والبساطة وانطلاقة الخيال وسيطرة العواطف والتغنى بجمال المرأة العربية .. سيدة القصور المنيعة .. وأفاضوا فى وصف فتنتها ودلالها وتألق سحرها من خلف الأسوار والأستار المخملية المثيرة .. وكانت هذه الدعوة بمثابة البعث الوجدانى للباحثين عن مناهل الوحى ومنابع الإلهام عبر البحار ..

وكان الرسامون أول من ألهبت هذه النداءات خيالاتهم ، فشدوا رحالهم إلى مكامن السحر فى بلادنا ، وقد داعبت قرائحهم المتقدة أطياف شهرزاد وغلالات أجنحة الحريم



ومغامرات السندباد وعوالم الجن والأسحار وكنوز الغموض والأسرار !

وإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد هذه الطفرة الرائعة من الهجرة إلى أقطارنا إلا أن الطابع الشرق الذى أثرى فنون الغرب أقدم من ذلك بكثير ، فمنذ سقوط القسطنطينية (عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية) عام ١٤٥٣ وانتقال الإمبراطورية الرومانية إلى إيطاليا ، انتقل معها الطابع الشرقى والإلهامات العربية الإسلامية إلى أوروبا ، حيث تأثرت بها فنون عصر النهضة الإيطالى (العصر الذهبى) ، وفنون الأراضى المنخفضة (بلاد الشمال الأوروبى) .. ناهيك عن تأثيرات الفن الإسلامى بالأندلس . كما أن ترجمة ونشر كتب (ألف ليلة وليلة) ورباعيات الخيام .. وغيرها من كتب التراث الشرقى .. كل هذا قد ألهب خيال الفنانين والمفكرين فيمموا وجوههم ووجدانهم شطر البلاد

الإسلامية .. ورأينا بالفعل كثيراً من الرحالة والمغامرين والمؤرخين ، يسعون إلى دولنا العربية والإسلامية فى حركة استشراق فردية بطيئة .. ولكنها لم تأخذ صبغة الحركات الجماعية إلا فى القرن التاسع عشر كما ذكرنا .

وهكذا توالت جماعات المبدعين فى الهجرة إلى الشرق ، تنقب عن الفتنة الكامنة فى ربوعنا ، وتكشف عن كنوزنا الجمالية المطمورة . وكانت محصلة هذا التأمل المبهور والبحث الهادئ الواعى .. أن خرجوا على العالم بروائعهم الفنية وموسوعاتهم الأدبية والعلمية المثيرة !

** أما الظاهرة الملفتة للأنظار حقيقة هذه الأيام ، هى التهافت الأسطورى من المتاحف العالمية والمجمّعات التراثية والهيئات والأفراد على اقتناء لوحات الفنانين الذين استلهموا الشرق فى إبداعاتهم ، والذين يعرفون فى تاريخ الفن بهذا الاسم الشهير : (The Orientalists) ويعود هذا الإقبال الشديد إلى أسباب أربعة :

بنت البلد (لفنان فرانز كوسلار) رسمها عام ١٨٩٥

* لقد انتهت الرومانسية فى فن اليوم ، وأصبح الإبداع ذهنياً غارقاً فى الذاتية والرمز والفلسفية ، ففافتقد بذلك عنصر الجمال الشكلى والواقعية الملهمة التى تخاطب الوجدان وتثير العواطف بصورة مباشرة ، فى عصر تشابكت فيه الأمور وتعقدت المفاهيم المكدودة واكتظت الأذهان بالعقد والأسلاك والأرقام والأزرار السحرية .

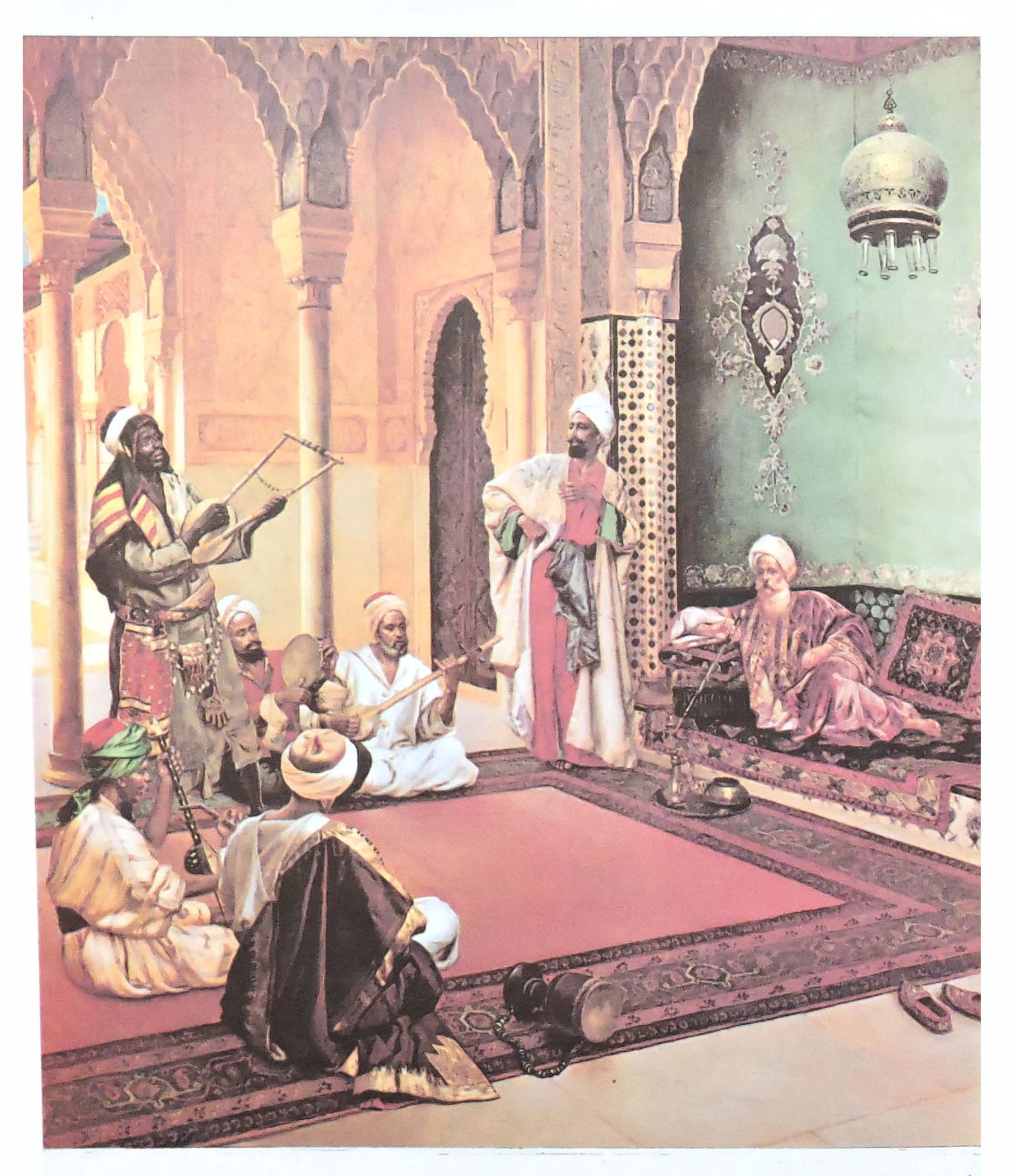
* الحنين إلى الرومانسية والتراث وأمجاد المضى كتعويض للذات عن الاندثار وفقدان الثقة بالنفس والإحساس بعدم الانتماء والضياع فى عالم اليوم ، ويزيد هذا الشعور كلما ازدادت الضغوط النفسية والثورة الصناعية الجامحة التى احتوت العالم بين مطارقها وضجيجها الرهيب ، ولم يعد للعبقريات الفردية والعطاء الإنسانى دوره القيادى كما كان من قبل .

* إن أثرياء العرب ــ وهم الممول الرئيسى لشراء هذه اللوحات ــ قد وجدوا ذاتهم فى لوحات المستشرقين التى تجسد أمجادهم الغابرة ، وأيقنوا أن زيف الحضارة المستوردة التى يحيونها .. يتضاءل ويخبو أمام روعة ماضينا العريق .. ولذلك فنحن نتشبث بهويتنا قبل أن نفقدها تحت وطأة الصراعات الأجنبية العملاقة المخادعة .. لقد اكتشفنا ــ بل يجب أن نكتشف ــ أن قيمتنا الحقيقية فى المحافظة على طابعنا وتراثنا وتقاليدنا العربية الإسلامية الأصيلة !

* ورابع هذه الأسباب : هو تزايد اهتمام الغرب بمنطقتنا وإلقاء الضوء عليها كمن يدعو ويعلن عن وليمة شهية يلفت إليها الأنظار !

ولى ملاحظة أخيرة .. هى أن عشرات المتاحف والمحافل الفنية أعدت خصيصاً لهذه اللوحات الشرقية فى العواصم العالمية الأجنبية .. ولم نفكر نحن العرب .. أصحاب التراث الكنوز والأمجاد .. فى أن نقدم على جمع هذا الشتات فى متحف بأية عاصمة عربية !!

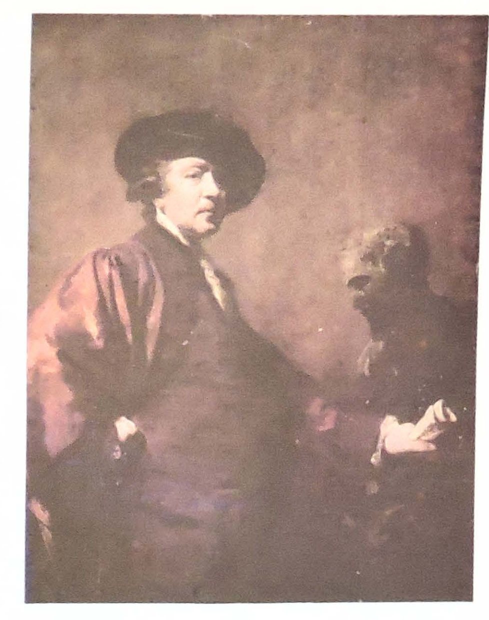
ولنتأمل هذه الروائع ، التى رسمها بعض الفنانين المستشرقين لنرى فيها الشرق العربى وقد ألبسه هؤلاء الفنانون ثوبا من الشاعرية المثيرة .



حفل الموسيقى (للفنان رودلف إيرنست)

رينـولدز

بين الريادة ورسم الحسان وجمال الطفولة



رينولدز : صورة رسمها لنفسه عام ١٧٧٣ ويظهر فى الخلفية
تمثال نصفى لفنان عصر النهضة الإيطالى مايكل أنجلو .

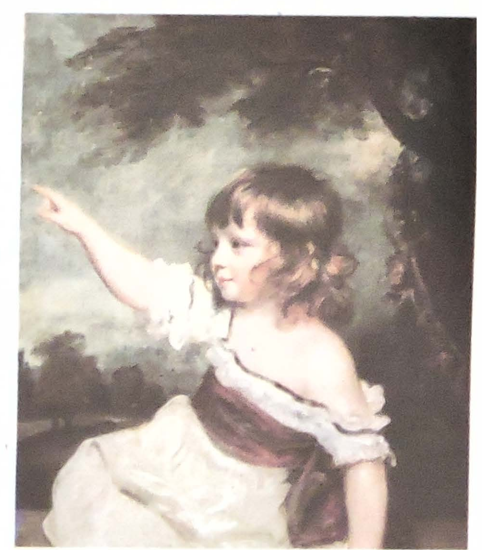
الفن الإنجليزى تتصل جذوره إلى فنانى قبائل (الكلت) ، وهذه القبائل هى التى أغارت من موطنها الأصلى فى شمال فرنسا ، على الجزيرة المقابلة .. منذ زمن سحيق ومن اسم (بريتانى) وهى المقاطعة التى كانت موطن قبائل الكلت فى فرنسا ، أطلق على الجزيرة منذ ذاك الحين اسم « بريطانيا » .

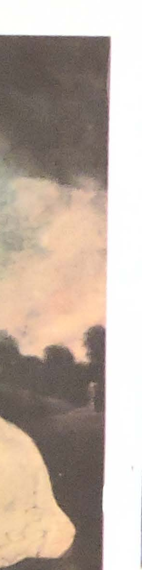
ثم ضم الرومان هذه الجزيرة وتوابعها لأملاكهم ، وظلت تحت سيطرتهم حتى أغارت عليها قبائل من الإنجليز والسكسون والجوت ، وكانت تسكن ما يعرف الآن بألمانيا ، وبهذا أخذت اسمها المعروف « إنجلاند » وفى أواخر القرن السادس الميلادى (عام ٥٩٧) ظهر راهب يدعى (أوجستين) ، نشر الدين المسيحى بين هذه القبائل التى تناحرت وتنازعت فيما بينها ، حتى تحولت البلاد إلى مناطق متصارعة لا تعرف الاستقرار أو الاتحاد ، وظلت الأحوال على هذا المنوال من الحروب والقلاقل ، حتى تولت أسرة تيودور التى أنشأت التاريخ الإنجليزى الحديث ، وتولى مؤسسها « ريشموند » الحكم تحت اسم « هنرى السابع » ، ومما ساعده على تثبيت دعائم الحكم ووحدة البلاد ، زواجه بالأميرة (إليزابيث) سليلة أسرة يورك العريقة التى حكمت إنجلترا فى القرن الخامس عشر .

ومضى التصوير الإنجليزى يركز خلال القرون الوسطى على خدمة الكنيسة الكاثوليكية ، فيقدم للمبانى الدينية أجمل اللوحات المستوحاة من حياة المسيح عليه السلام ، كما أضفت على الحياة الإنجليزية داخل البيت جواً دينياً من الرسوم والزخارف التى كان الفنانون يرسمونها بروح كنسية ميزت طابع العصر آنذاك . وما أن حل المذهب البروتستانتى محل الكاثوليكى ، حتى أصبح الفنانون مهددين فى أعمالهم وإبداعاتهم وأرزاقهم ، فقد وقف رجال الدين موقفاً عدائياً من الفن والفنانين .. وحرم مثل هذه الأعمال من منحوتات وصور فى الكنائس والمرافق الدينية ..

وكان هذا الموقف بين رجال الدين والفنانين هو السبب الأساسى فى تحول وجهة النظر الإبداعية إلى مصادر إلهام شيقة أخرى غير القصص الدينى وخدمة الكنيسة واتجه الفنانون إلى الطبيعة وما فيها من مناظر موحية ، وإلى الشخصيات البارزة فى مجتمعهم — من ملوك وأمراء ونبلاء وأثرياء — يرسمون صورهم ويخلدونهم فى لوحات فنية تجوب







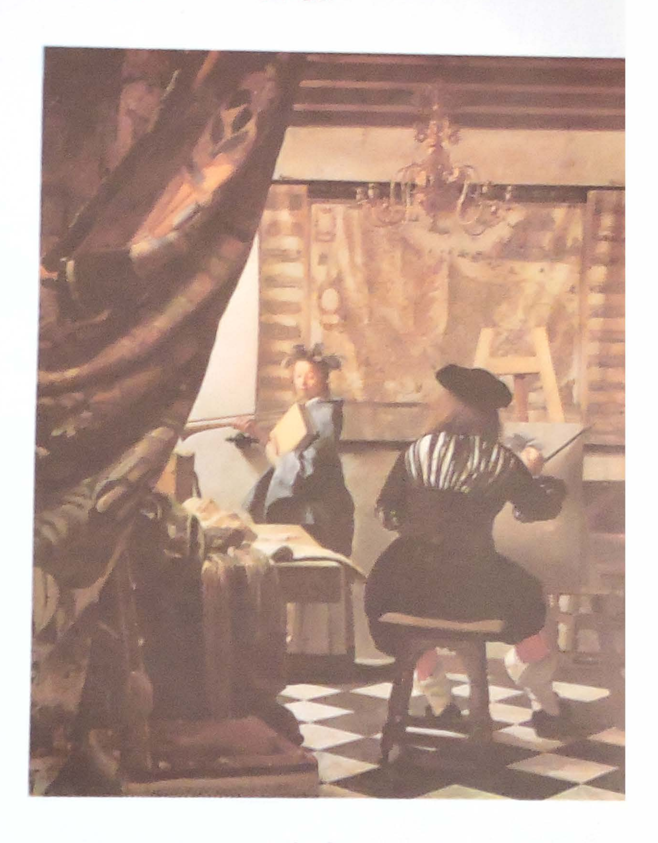
المعارض والمتاحف .. ولتستقر فى صفحات التاريخ .

وقد لاقى الفنانون الإنجليز نفوراً وإعراضاً من المجتمع فى أول الأمر .. حيث أن الإنجليزى بطبعه لم يتفاعل مع الفن إلاّ إذا كان نافعاً له نفعاً مباشراً فى حياته اليومية ، أى أن الإنجليز يفضلون الفنون التطبيقية الذهنية عن الإبداعات الوجدانية .. ولكن القرن الثامن عشر شهد تحولاً هاماً فى النهضة الفنية الحديثة بفضل ظهور بعض الفنانين الأفذاذ من أمثال هوجارث (وهو رائد النزعة الفنية الاجتماعية) ، ثم فناننا رينولدز الذى أطلق عليه : أستاذ الطابع القومى فى الفن الإنجليزى . ولا شك أن إنجلترا تفخر عن جدارة بهذا الفنان الموهوب (رينولدز ١٧٢٣ ــ ١٧٩٢) ، الذى استطاع أن ينهض بتصوير الأشخاص Portraits حتى وصل بهذا الفن الرفيع إلى القمة ، وتفوق فيه على كبار المصورين الأجانب الذين كانوا يفدون على ملوك إنجلترا وعظمائها لرسم صورهم وتزيين قصورهم . كما استطاع رينولدز بفضل صفاته الذاتية من ثقافة ، وسعة اطلاع ، وخلق رفيع ، أن يتقلد منصب عميد المجمع الملكى للفنون بلندن ، وأن يهز التقاليد العريقة فى مجتمعه ، تلك التقاليد المحافظة التى طالما وقفت حائلاً بين الشعوب وممارسة اقتناء الفنون الجميلة .

وقد جاء بعد رينولدز كثير من العباقرة الذين أثروا الحياة الفنية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. إلا أن رينولدز كان أستاذ هؤلاء الأساتذة . وكانت كلمته أو شهادته عن فنان أو عن عمل فنى بذاته ، بمثابة الحكم والمرجع والميثاق .. ويكفى أن يقال : إن رينولدز رأى .. أو أنه أشار بكذا .. ولم تتوقف أمجاد رينولدز الفنية على براعته التشكيلية فحسب ، ولكن التاريخ يسجل له أنه أول من فصَّل معنى (الفنون الجميلة) ، وفرّق بينها وبين الفنون التطبيقية ، ولأول مرت تضم (الأكاديمية الملكية البريطانية للفنون الجميلة) الأقسام الثلاثة التى اصطلح على أن تسمى بالفنون الجميلة وهى : الرسم والنحت والعمارة .. ولذلك استحق عن جدارة أن يصبح : السير جوشوا رينولدز .. فنان التاريخ العظيم .



فيرمير ... النسيان وصمود العبقرية

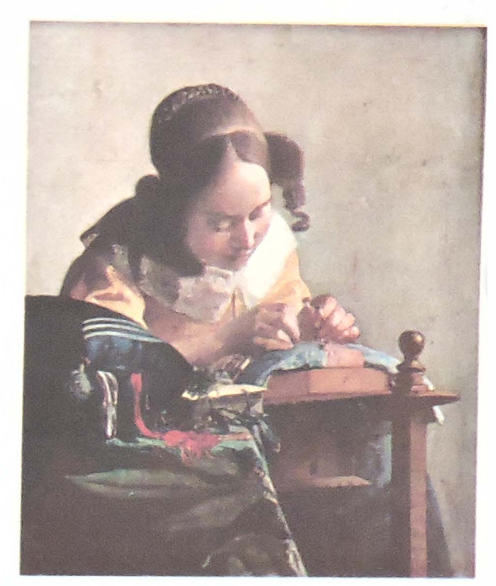


فيرمير فى مرسمه : إحدى لوحاته الشهيرة التى رسمها عام ١٦٦٦ وقد اختلفت الآراء حول شخصية الفنان الذى ظهر فى هذه اللوحة منهمكا فى رسم نموذجه الحسناء .. ولكن معظم كتب الفن أجمعت على أن فيرمير قد رسم نفسه ..

فناننا هو (جان فيرمير) أحد أقطاب المدرسة الهولندية التى ازدهرت إبداعاتها بصفة خاصة فى القرن السابع عشر ، وهو عصر تألقت فيه روائع الفن الفلمنكى فى أوروبا ، حتى أنه يمثل فى التاريخ عصر نهضة حقيقية بعد أن سيطر عصر النهضة الإيطالى فى القرن السادس عشر من قبل .

ويعتبر فيرمير من أقل الفنانين العالميين حظاً ، وأكثرهم معاناة من الجحود وعدم التقدير والانطواء الذى فرضه عليه معاصروه .. حتى أنه مات وهو فى ريعان شبابه فى الثالثة والأربعين تاركاً زوجته وأطفاله الثمانية ودم فى أشد حالات العوز والفاقة .. بل كانوا مطالبين كذلك بتسديد ديونه المتراكمة ! مما اضطر الأرملة المسكينة إلى أن تسدد الديون بعشرات من لوحاته ، فحملتها لكى توزعها على الخباز والبقال والقصاب وكثير من المتاجر ..! وحتى بعد وفاته ، فقد أسدل عليه ستار النسيان نحو مائتى عام ، ثم بدأ العالم يعترف بعبقريته وكان ذلك بفضل الفنان البريطانى الشهير (السير رينولدز) أول رئيس للاكاديمية البريطانية ، عندما زار هولندا فى أواسط القرن الثامن عشر ، فأتيحت له فرصة مشاهدة أعمال فيرمير ودراستها بإمعان .. ثم أعلن على الملأ





الحائكة

أن فيرمير يعتبر أحد عباقرة الفن فى التاريخ .

و لم يترك الفنان فى حياته القصيرة إلا نحو أربعين لوحة .. وهو عدد قليل ــ نسبياً ــ يتهافت عليها الآن جامعو الصور وأصحاب المتاحف .. وقد بلغت أثمان لوحاته حالياً أرقاماً مثيرة .. تعد بالملايين ! بل إن لوحة واحدة من أعماله تمثل اليوم ثورة طائلة لمن يمتلكها .. ولكننا إذا رجعنا ــ عبر التاريخ لثلاثة قرون خلت رأينا أنه فى عام ١٦٦٣ يقول (دى مونكنيز) ــ وهو من كبار النبلاء حينذاك ــ : « قابلت فيرمير فى بلدته (دلفت) ، ورأيت لوحة له فى منزل أحد الخبازين اشتراها بمبلغ ستمائة فلورن ، وفى نظرى أن ستة بستولات كثيرة عليها » ! والبستول عملة أسبانية صغيرة لا تكاد تساوى شيئاً . ومن العجيب أن هذه الصورة التى تحدث عنها مونكنيز وهى اللوحة الشهيرة (خادمة تصب اللبن) .. هى نفسها التى حظيت بإعجاب فنان بريطانيا الكبير (رينولدز) وقال عنها : « إنها أحسن ما رأيت من أعمال فيرمير الرائعة » ! ومن عجائب القدر كذلك ، أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، تحدثت صحافة العالم عن فضيحة كبرى : فقد قام فنان هولندى يدعى (فان ميجرن) بتقليد أعمال فيرمير ، وظل يقوم بهذه العملية فيما بين عامى ١٩٣٥ و ١٩٤٥ .. واستطاع أن يقلد ست لوحات أكسبها طابع القدم بطريقة فنية خاصة ثم باعها بنصف مليون جنيه حينذاك ، على أنها مقتنيات أثرية من أعمال فيرمير ، وقد باع اللوحة السادسة لأحد قواد النازية هو (الماريشال جورنج) . وكان يمكن أن يظل (ميجرن) مستمراً فى تقليده وحصوله على الملايين ، لولا انكسار النازية فى الحرب العالمية الثانية وحصر ممتلكات قادتها .. فقد وجدت اللوحة ضمن مقتنيات جورنج ، وقبض على (ميجرن) بتهمة التضامن مع العدو وبيعه إحدى لوحات فيرمير للقائد النازى !!.. وأسقط فى يد الرجل .. ولم يجد بدا من أن يعترف بالتزوير .. وفضل هذه التهمة على أن يعتبر خائنا لبلده ! وهكذا كشف نفسه ، وما كانت هذه الواقعة لتعرف فى العالم لولا أن اعترف (ميجرن) بنفسه ، فقد بلغ من دقة التقليد أن صنع ألوانه من المواد الخام التى كان فيرمير يصنع ألوانه منها جريا على عادة الفنانين القدماء فى صنع ألوانهم بأنفسهم . كما كان يرسم لوحاته على قماش بالغ القدم يحصل عليه من مخلفات أثرية بطريقته الخاصة !.

وهكذا كان فيرمير .. عاش مهضوماً ومات بائساً .. وهو الموهبة الفذة التى لم يعترف بها العالم إلا بعد رحيله بقرنين من الزمان .. وأثرى الآخرون والمزورون من الاتجار باسمه ولوحاته !

ولكنه ترك لنا فناً خالدا وتراثاً عبقرياً نعتبره الآن من أبرز المنارات فى مسيرة الفكر الإنسانى على مر القرون .



خادمة تصب اللبن

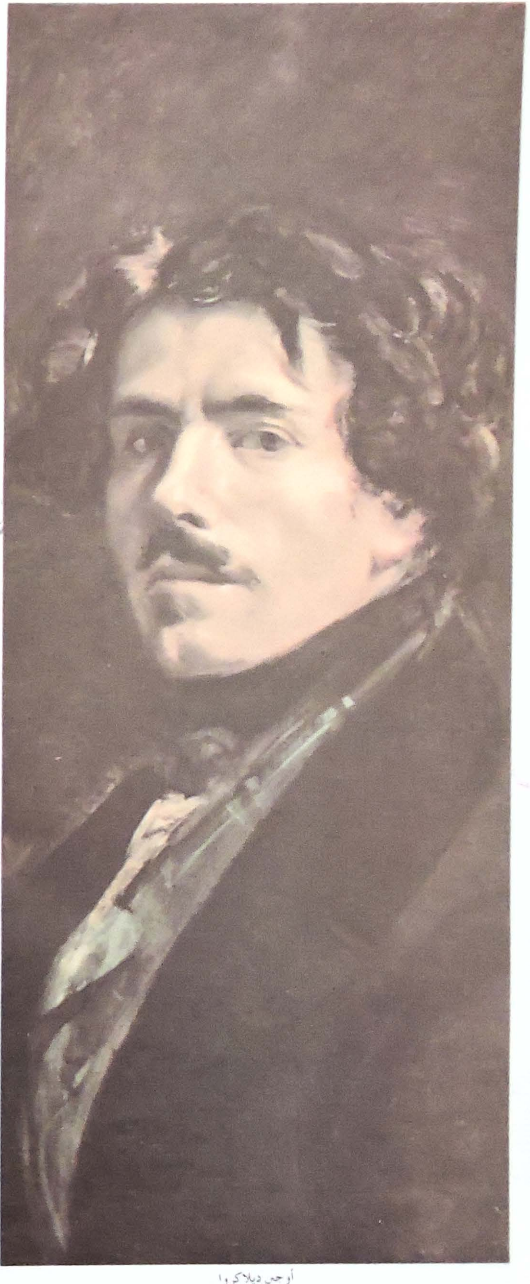
ديلاكروا ...

الانفعال والثورة وسحر الشرق

كان شاباً قلقاً منطوياً على نفسه خجولا مفرط الحساسية .. وذلك من هول ما عاناه طفلا أو صبياً أو شاباً ، حتى قدر له أن يتولى زعامة الحركة الرومانتيكية العظيمة تلك التى اقترنت باسم الكاتب الشهير « فيكتور هوجو » فى ميدان الأدب فى أوائل القرن الماضى .

إنه (ديلاكروا) الفنان الذى سجل فى التاريخ كأحد الرواد الذين حرروا الحركة الفنية من جمود الكلاسيكية وقيود الأكاديمية ، وجعل مثاليات الفن تتسع لتشمل قوة التعبير المباشر عن العاطفة المتوقدة والخيال المتوهج .. ومن هنا كانت المعركة التى نشبت بين الكلاسيكيين والرومانتيكيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فالكلاسيكيون قد اهتموا بالخطوط وحبكتها الهندسية ، وكان كل همهم بزعامة (دافيد) هو مثالية التعبير ووقاره المستمد من الميثولوجيات القديمة مهما كان هذا الوقار جامداً بارداً ، ومرة أخرى نجدهم يتحولون إلى (الجمال) فى عهد زعامة (آنجر) .. جمال الخطوط المنسابة فى رقة ورخاوة . وبعد أن دالت دولة الكلاسيكيين ، وظهرت الرومانتيكية بزعامة (تيودور جيريكو) ومن بعده فناننا ديلاكروا .. فتحوا أبواب التعبير وتفاعل الوجدان على مصراعيه .. واستمتع الفنانون بتجربتهم الفنية مع الألوان والحركة وتدفق الحياة . وسجلوا أحداث عصرهم بأفراحها وأتراحها وفواجعها ، واستلهموا أحداث التاريخ وحروبه فى لوحات دراماتيكية .

ولعل من أشهر لوحات ديلاكروا هى لوحته عن مذبحة شيز التى رسمها عام ١٨٢٤ بعد أن انفعل بما اقترفه الأتراك من مذابح أثناء حرب الاستقلال اليونانية .



أوجين ديلاكروا



مذبحة شيوز

ومن الغريب أن ديلاكروا لم يكتف بعالمه الفنى التشكيلى فحسب ، بل إن يومياته تصل إلى أغوار النفس وتبحث فى أعمق الأعماق الوجدانية ، وعندما يتناول فى كتاباته موضوعات : الإلهام والعبقرية والخيال والحلم ، متخذاً من نفسه ميداناً للبحث والتنقيب .. كان يصل إلى قمة تألقه فى التحليل النفسى كأحد المتخصصين الرواد . وقد بلغ فى ذلك حداً جعله مصدراً من مصادر علم النفس ، حتى أننا رأينا (سيجموند فرويد) فى مؤلفاته عن التحليل النفسى بعد ذلك ، يتخذ من أفكار ديلاكروا مرجعاً من مراجعه الأساسية . ولم تقتصر مؤلفاته الأدبية على هذه المذكرات ، أو (اليوميات) التى تعتبر أبحاثاً تاريخية فى الفن الفرنسى ، بل يشتمل تراثه الأدبى كذلك على رسائل عامة هى آيات أدبية رفيعة المستوى تقع فى خمسة أجزاء ، أما كتاباته الفلسفية والنقدية عن مشاهير الفنانين ، فتقع فى مجلدين كبيرين ، بجانب العشرات من القصص والمسرحيات التى نافس بها كبار الأدباء المتخصصين !

ولعل هذا التأثير الأدبى يرجع إلى ولعه بأعمال مشاهير الأدباء والشعراء البريطانيين عندما سافر إلى لندن (مرتع الرومانتيكية) عام ١٨٢٥ ، ودرس هناك ــ بجانب الفن ــ أعمال والتر سكوت وملتون وبايرون .. كما عكف على



الخيول والبحر

استيعاب أعمال شكسبير الخالدة !

أما المرحلة الثانية التى كان لها وقع عظيم فى نفسه فهى رحلته إلى المغرب والجزائر عام ١٨٣٢ . حيث بهرته أضواء الشرق وفتنته مناظر الطبيعة ، والجياد العربية الأصيلة ، فظلت إيحاءات هذه الرحلة عالقة بخياله طوال حياته ، وخلدها فى لوحات كثيرة تصور (نساء من الجزائر) والفرسان العرب ، والسباق ، والقنص وغير ذلك من مظاهر الحياة فى الشمال الأفريقى وطابعه وتراثه الإسلامى الأصيل . وتعتبر لوحته الشهيرة التى رسمها عام ١٨٣٤ (نساء من الجزائر) وقد افتتن فيها بالطابع الشرقى ونقوش (الأرابيسك) المثيرة ، والبيوتات الموسرة بما تتميز به آنذاك من الدعة والسكينة والشاعرية والجمال ، من أهم ملامح تأثره بأجواء الشرق .

واستمر أوجين ديلاكروا فى تألقه حتى صار ألمع الفنانين فى عصره ، حيث كلف بزخرفة قصور : بوربون ولوكسمبورج واللوفر .. مما جعله محط الأنظار فى أوروبا كلها ، وقد زخرت كتابات شعرائها وفلاسفتها بالثناء على عبقريته الفذة فى مجالات الفن والأدب على السواء .

ومات ديلاكروا عام ١٨٦٣ عن خمس وستين سنة عامرة بالعطاء الخالد ، والفكر الإنسانى الرفيع .



نساء من الجزائر .

الزهور ..
في عالم الفن
والوجدان



لوحة ڤان جوخ ـــ رسمها عام ١٨٨٦

من المعروف فى علم الجمال أن الفنان لا يقنع بما يراه فى الطبيعة ، بل يحاول ابتكار نوع آخر من الجمال يصور به خياله ومشاعره ، بشكل يوقظ فى أنفسنا الشعور باللذة ، أو الارتياح بتذوق بلاغة التعبير عن معان جمالية يمكن إدراكها وفهمها .

والفرق بين جمال الفن وجمال الطبيعة ، كالفرق بين القلب والعقل ، أو بين العاطفة والمنطق ، أو بين الحب والحكمة .. ومن هذه الفروق نستطيع أن ندرك ما هى مقومات الفن وأهدافه ، ونستطيع أن نتصور الفنان وهو يرنو إلى باقة من الأزهار الطبيعية .. ويسبح فى أطياف الألوان العبقرية .. ثم يصوغها فى لوحة تفيض بمعانى الجمال والألفة والشاعرية ! وإذا كانت دعائم الفن هى الجمال والعاطفة والحب .. فما أحرانا أن نراها مجتمعة فى خمائل الزهور يانعة رقيقة كلمسات مرهفة حانية أبدعتها يد الخالق عز وجل ! ولا غرو أن نرى معظم الفنانين ـــ بل جميعهم ـــ لا تخلو أعمالهم من رسم الزهور ، حتى إن كثيراً من الدول ، تقيم لها العروض الخاصة ، سواء أكانت مهرجانات للزهور الطبيعية أو معارض فنية للوحات الفنانين ..

ولعل أكبر هذه المهرجانات العالمية هو ما يقام ـــ سنوياً ـــ بفرنسا على مساحة تبلغ خمسة وثلاثين هكتاراً ، ويزوره أكثر من مليون مشاهد من مختلف أنحاء المعمورة ..

.. وقد بلغ من حب الشعب للزهور أن بلغ الإنفاق السنوى على شرائها خمسة مليارات فرنك ! إنه حب الفن وتذوقه الذى يهذب الوجدان ويفتح البصائر على آيات الجمال !

وإذا تصفحت الإحصاءات عن روعة الإعداد لهذا المهرجان ، لأيقنت على الفور أن فرنسا جديرة بأن تكون عاصمة الجمال ، ومهد الفنون الجميلة التى اقترنت بعاصمتها باريس منذ أكثر من مائتى عام . وقصة الفن على أرض فرنسا ، قصة جميلة ليس أجمل منها إلا الفن ذاته .. فقد سادت على حركة الإبداع الراقى بعد أفول عصر النهضة الإيطالى .. ولذلك سمى الفن الفرنسى بعصر النهضة الثانى ، وظل الأزدهار .. وتوالت المدارس الفنية فى باريس ، كسباق حضارى يشد انتباه العالم أجمع حتى اليوم ! وكانت الطبيعة وجمالها الأخاذ .. مصدر الإلهام لكثير من هذه المدارس مثل : (الخروج إلى الطبيعة) و (التأثيرية) وما بعدها ، وكان قوامها التأمل والتعبير المباشر عن جمال الطبيعة وألوانها المتلألئة بنور الله . ونادراً ما نشاهد متحفاً ـــ وما أكثر المتاحف فى تلك الدول ـــ إلا وتصافح أعيننا لوحات الفنانين عن الزهور والمناظر الطبيعية !



لوحة رينوار ـ رسمها عام ١٨٦٦ .



***الزهور فى اليابان لغة العواطف والتفاهم :**

كنت فى زيارة دراسية فى اليابان عام ١٩٧٧ ، وما أكثر ما قرأت قبلها عن الفن اليابانى وعشقه الدائم للزهور .. فالزهرة فى لوحات اليابانيين هى قاسم مشترك وعنصر أساسى ، ولا غرو أن تكون زهرة (الشرى) رمزاً لبلادهم ! وإذا كان الفن اليابانى قد اتخذ طابعه الكلاسيكى الشهير من حيث (التكنيك) رمزاً للأصالة والعراقة ، فقد اتخذ الزهرة طابعاً للرومانسية وحب الجمال ! كانت زياراتنا المتلاحقة للمتنزهات الشاسعة عبارة عن بحث فى متحف طبيعى للزهور. ويحلو للمواطن اليابانى — أياً كانت ثقافته — أن يحدثك عن زهرة بعينها وكأنه متخصص فى علم النبات .. وإذا ما اضطرتك الظروف أن تطأ بقدمك إحدى الزهرات — حتى لو كانت وليدة صغيرة — تأوه اليابانى ألما وكأنك تدوس على رئتيه ! وبكل الحب والأدب يحاول أن يقيم الزهرة مرة أخرى ويربت عليها فى مناجاة صامتة . وإذا ما طاب التنزه والمرح ..سار اليابانيون فى جماعات يشدون بنشيدهم الوطنى : ساكورا ساكورا .. وما هذه (الساكورا) إلا تلك الزهرة البيضاء الجميلة التى لا يخلو من أشجارها مكان فى اليابان ! والناس هناك يعشقون الزهور بدرجة جنونية ، لا يصل إليها أى شعب فى العالم . فالزهرة تساوى عند الرجل اليابانى ولداً من أولاده ، تجدها فى كل حجرات بيته ، وفى الشرفات والنوافذ ، وفى حدائق معلقة فوق أسطح المنازل ، وفى مكاتب العمل وفى ردهات المبانى العامة .. وفى كل حياتهم !

واليابانى يمتلك عشرات الأنواع من الزهور فى حديقة بيته ، يقضى معها أمتع الأوقات فى تأملها ورعايتها وتنسيقها . وأذكر أننى كنت فى زيارة لأحد المعارف اليابانيين فى مدينة : (ناجويا) ، تلك المدينة الدينية العريقة ، وعندما دلفنا من باب الحديقة إلى الممر الموصل إلى داخل البيت ، فوجئت بأن مضيفى يستوقفنى أكثر من نصف ساعة يحدثنى عن الزهور فى حماس وعاطفة جياشة ، تعلو نبراته وتنخفض حتى تصل إلى درجة الهمس الحالم .. ولما لم تسعفه اللغة الإنجليزية — التى أجيدها — اندفع يتحدث باليابانية ويغنى بأشعار لم أفهمها ولكنى أحسست بما يقول !

ومن المستحيل أن ترى شارعاً أو ميداناً فى كل أرجاء اليابان دون وجود الحدائق المزدهرة بخمائل الزهور ، ويرجع علماء النفس هذا الشعور الجارف بجمال الأزهار عند اليابانيين إلى معاناة الشعب القاسية من ويلات الحرب العالمية الثانية ، والمعايشة اليومية للبراكين والزلازل ، مما جعل الناس يعشقون عطاء الأرض ويجدون السلوى فى جمالها الطبيعى .. وليس هناك فيما تنبت الأرض أجمل من الزهور !

وبنفس القدر ، أحبت المرأة اليابانية الزهور .. واستخدمتها لغة طيعة فى التعبير عن عواطفها : فإذا وضعتها بشكل معين فإنها تقول بغير كلام : جملة شوق أو صرخة احتجاج أو زفرة ألم أو مناجاة أو عتاب ! وهناك شعب آسيوى آخر له مع الزهور شؤون وشجون .. هو شعب الصين الذى يتخذ من زهرة (الكريزانتيم) رمزاً لبلاده ! وللحديث عنه مجال آخر .

*** لغة الألوان :**

وقد اختلفت الآراء والتفسيرات حول ما ترمى إليه ألوان الزهور ، ولكن هذه التأويلات غالباً ما تخضع للمزاج الشخصى قبل أن تكون حقائق متفقاً عليها ؛ فيقولون إن الزهور المهداة إلى المريض يجب أن تكون ذات ألوان تتراوح



لوحة أوديلون ريدون ــ رسمها عام ١٩١٦



لوحة ديجا ــ رسمها عام ١٨٦٥

بين (البمبى) والأزرق الفاتح .. ولكنى عندما كنت بصدد زيارة صديق مريض ، وقصدت محلا شهيراً يعتبر صاحبه خبيراً فى مثل هذه الأمور ، طلبت منه باقة زهور وأوضحت له الغرض منها ، فقال بلغة الواثق من علمه وخبرته : خذ الألوان المبهجة وأكثِرْ من الأحمر والأبيض ، فإن المريض محتاج لمثل هذه الألوان .. وعندئذ عرفت أنها مسألة تقديرية وليست نصوصاً علمية ! ويقولون إن الزهور الدافئة (اللون الأحمر ومشتقاته) تقدَّم فى الأفراح والمناسبات السعيدة .. ولكنى عندما تتاح لى فرصة حضور مثل هذه المناسبات السارة ، أرى باقات من كل الألوان دون استثناء .. أما القول بأن الزهور ذات اللونين البنفسجى والأزرق الغامق ، تقدم فى الأحزان .. فأعتقد أن هذين اللونين الباردين إذا اجتمعا فلا بد وأن يتركا فى النفس إحساساً بالأسى والقتامة والانطواء ، وربما كان مبعث هذا الاعتقاد هو الواقع الذى يدركه كل فنان يتعامل مع الألوان . وبغض النظر عن مدلولات الألوان والاجتهادات المتفاوتة فى تفسيرها ، فإن الزهور أقرب إلى القلب والروح والوجدان وأمتع للعين من أى شىء آخر ، ولعل كثرة ما أثير حولها من حديث وأبحاث خير دليل على ما تحمله من مضامين وإيحاءات معنوية شتى ، يجد كل إنسان فيها بغيته وصدى لانفعالاته ، أياً كانت هذه الانفعالات !

وقد ذهب الطب النفسى إلى أبعد من ذلك ، وأكد أن لكل إنسان ميوله الخاصة نحو زهرة معينة وعطر بذاته ، مما يدل على شخصيته وحالته النفسية والاجتماعية والثقافية . ووضعوا تعريفاً ــ حسب اجتهاداتهم ــ لكل لون من الألوان :

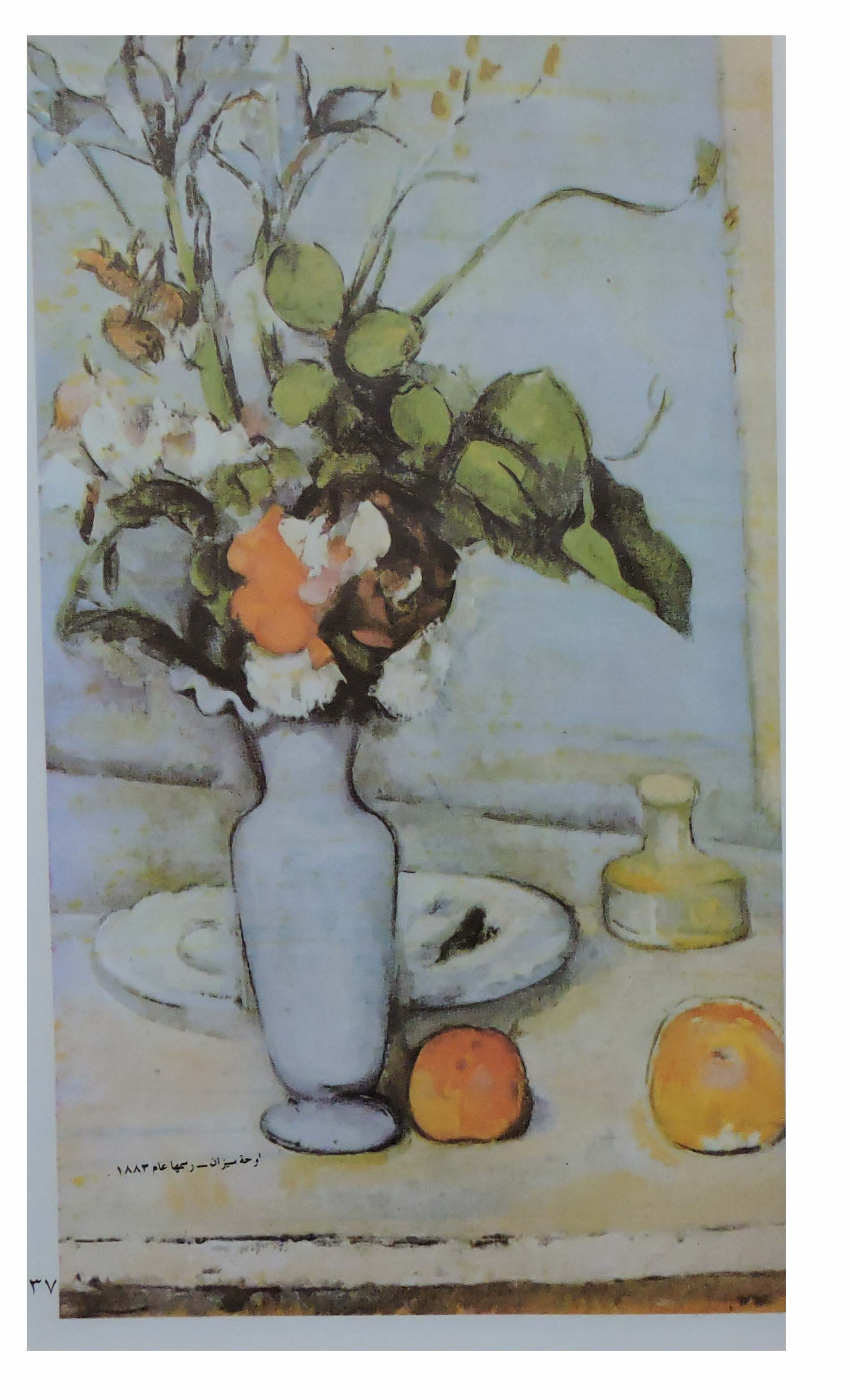
الأخضر :

يوحى بالراحة والنماء والتطور .

الأحمر :

وهو أكثر الألوان استحساناً عند النساء ، فدلالته القدرة على الإنجاب ، وتوقد العاطفة .

الأبيض :



لوحة سيزان ــ رسمها عام ١٨٨٣ .

لوحة جان هويسام ــ رسمها عام ١٧٤٠ .



يدل على الطهر والنقاء والصفاء ، والأمل فى الشفاء .

البرتقالى :

قرين لرقة المشاعر والأحاسيس .

البنفسجى :

يعبر عن الحزن والألم .

الأزرق :

معناه الانطواء والتقوقع .

أما عند محبى الزهور وهواة الرموز ، فهناك أنواع بعينها تقول تعبيرات بدون كلام ، فمثلا زهرة شقائق النعمان : معناها لماذا هجرتنى ؟ وزهرة السوسن : أنت تسلبين شعورى ، وزهرة القرنفل : لقد خاب فيك ظنى ! وزهرة النرجس أنت أنانى ، وزهرة الزينيا : إنذار ! احذرى العواقب !... وكما ذكرنا ، فهذه ليست حقائق علمية ، ولكنها اجتهادات ربما تدخلت فى صياغتها المداعبة أكثر من أى شىء آخر !

* قصص بين العلم والأساطير :

وكثيراً ما نقرأ عن الزهور فى علم النبات قصصاً غريبة .. ولكنها حقيقة علمية مؤكدة : الزهور التى تتمتع بحساسية مرهفة .. فتحزن وتفرح وتتفتح وتكتئب وترحب بفراشة وتغلق وريقاتها دون فراشة أخرى .. والزهور الفنانة التى تستمتع بالموسيقى وتبدو أكثر إشراقاً ونضارة لمعزوفة (كلاسيكية) . كما تنمو بشكل مخالف إذا (استمعت) لموسيقى (الجاز) و (الروك آند رول) وزهرة عباد الشمس التى يتجه قرصها الدائرى دائماً إلى قرص الشمس .. حتى إذا ما غابت وحل الظلام ، تصاب الزهرة باكتئاب وتنكس رأسها إلى الأرض .. ولكن مع إشراقة الشمس فى الصباح مرة أخرى ، تعود الفرحة إلى زهرة عباد الشمس ، وتتألق ألوانها وترتسم ابتسامة عريضة هى قرصها الكبير ! وزهرات أخرى تنكمش فى استحياء عذرى إذا ما مست وريقاتها أنامل الإنسان .. إلى آخر هذه الظواهر الطبيعية الثابتة !.

أما الأساطير ، فتزخر الكتب بقصصها وحكاياها المثيرة : فلزهرة (الكاميليا) عند الآسيويين منزلة خاصة .

ونقرأ الكثير عن الأساطير المتعلقة بالزهور : فهناك بعض القبائل فى آسيا يثبتون زهرة بعينها تسمى (إيزى) فى شعورهم وثيابهم ويعتقدون أنها تشفى المرضى من الجراح والآلام ، وتبث السعادة فى قلوب المحبين ..

ــ وكليوباترا فى لقائها الأول مع أنطونيو ، أمرت بأن تقطف لها زهرات اللوتس من على ضفاف النيل ، واستخرجت منها عطراً نافذاً باركه الكهنة ، فأسلم القائد الرومانى قلبه لفاتنة مصر بعد أن سحره العطر الجميل ، ثم أمرت بأن يصنعوا لها من الزهور بساطاً بلغ سمكه (خمس بوصات) لتفرش به القصر تحت أقدام أنطونيو وليبلغ سحر الزهور مداه !

.. وتتعدد الحكايا .. وتتشعب القصص والأحاديث ، ولكن الحقيقة ماثلة أمامنا تؤكد لنا ــ فى جمال الزهور ــ عظمة الخالق فيما أبدع وصور ، وسبحان الله العظيم !

لوحة جوجان ــ رسمها عام ١٨٩١ .

مدام ريكا مبيه .. ملهمة الفنانين العظام

ارتبطت حركة الفن الراق بتلك الرابطة الحانية التى توثق العواطف والأحاسيس برباط الحب .

وطالعتنا أسماء سطعت فى سماء الفكر لملهمات فاتنات استطعن أن يكن نواة لخلية الإبداع ، سواء أكان هذا العطاء على صورة لوحة أو تمثال أو قصيدة أو أدب .. وسواء تألق هذا العطاء الفكرى فى أروقة المتاحف أو فى بطون الكتب أو على خشبات المسارح . وفى كل الأحوال ، يسطر التاريخ صفحات ناصعة لهذا الفنان أو ذاك .. كما تخلد (الملهمة) كمنبع لهذا الفكر الإنسانى الرفيع ، وكثيرا ما كانت الملهمة قرينة للعمل الفنى ذاته ، وقد تطغى شهرتها على شهرة الفنان .. كما حدث للوحة الجيوكوندا (موناليزا) ، أو لوحة (الليدى هاملتون) أو (مدام دى بمبادور) أو لوحة فاتنة العصر (مدام ريكاميه) .. تلك الفرنسية الحسناء التى تألقت فى النصف الأول من القرن الماضى على عرش الجمال الأنثوى الصارخ .. وفى ميدان الأناقة والذكاء والدهاء والفن والأدب والثقافة !

الملهمات

والذى يشاهد متحف اللوفر فى باريس ـــ وهو أشهر متاحف الدنيا ـــ يجد أن العديد من لوحات (مدام ريكاميه) فى أطرها الذهبية الرائعة ، تصافح عيون المشاهدين ، وتذكرهم بعصر النهضة الفنية الفرنسى .. أيام فنانى القمة من أمثال (دافيد) و (آنجر) و (جيرار) ، وعشرات غيرهم من أساطين فن التصوير . أيام أن منح الزمان للبشرية هذه الصفوة من فنانى التاريخ الخالدين .. كان التفانى والسباق والتنافس والابتكار والتفوق .. هو شغل الفنانين الشاغل .. وكانوا فريقين ، يتنازعون ويتحاورون بين معنيين كبيرين : الجلال أم الجمال ؟!

وكم شاهدنا تحولات وابتكارات غيرت وجه تاريخ الفن العالمى .. بتشجيع من تلك الفاتنات الملهمات ، كما حدث لمجموعة الفنانين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر فى عهد مارى أنطوانيت (ومدام دى بمبادور) ، حيث كانت كل منهما لهؤلاء الفنانين بمثابة الراعية والملهمة والصديقة .. بل وأكثر من ذلك فى بعض الأحيان .

ولذلك ظهر مذهب (الروكوكو) الشهير فى الفن لخدمة البلاط الملكى الفرنسى ، وظهرت أسماء لامعة فى عالم ذلك الفن الرفيع من أمثال (واتو) و (ريجو) و (بوشيه) و (فراجونار) الذى امتد به العمر بعد ذلك حتى شهد نشوب الثورة الفرنسية ثم الإمبراطورية الجديدة التى أنشأها نابليون .. وعندها جاء دور مدام ريكاميه !

تلك الفاتنة التى كانت مثارا لخيال الفنانين وملجأ حانيا لعواطفهم الجياشة .. فقد تربعت على عرش الجمال .. وتسامت علاقاتها إلى أعلى مراتب الحكم والسياسة والتحكم فى تسيير الأمور . حتى أن كثيرا من المؤلفات التى توالت على المكتبات العالمية تتناول علاقتها مع نابليون نفسه .

برنار ... الفتاة الأسطورة

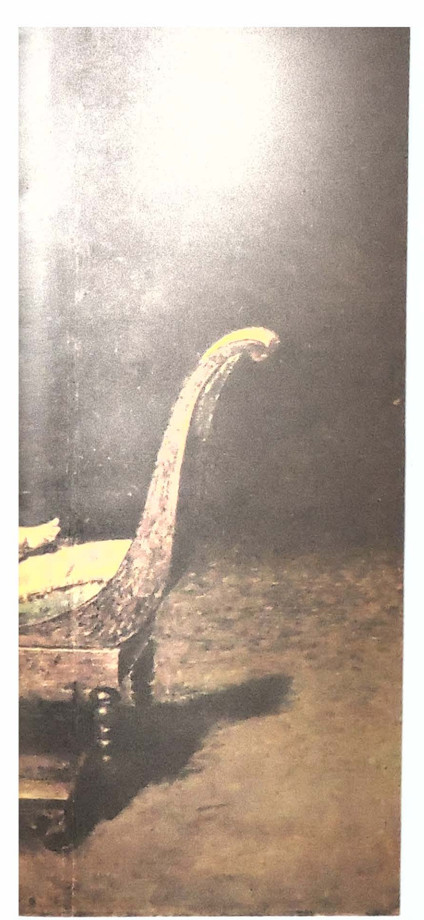
لم يكن الأب الطبيب يقدر لابنته ذلك المستقبل الحافل بأسباب الشهرة والتألق .. وأنها ستبلغ فى عالم السياسة والفن والأدب ذلك الشأن العظيم ! كان اسمها (برنار) .. فتاة رائعة الحسن ، فتانة الجمال ، ساحرة اللحاظ . وعلى الرغم من هذه المحاسن التى تنعم بها الفاتنة الصغيرة .. فقد ظل أبوها لا يرجو الا أن تجد ابنته زوجا من طبقته المتوسطة !

* * *

ولما بلغت (برنار) الخامسة عشرة من عمرها ، ساقتها الأقدار فى طريق أحد وجهاء باريس المعروفين .. رآها فى إحدى الحفلات العامة .. وما أن وقعت عليها عيناه ، حتى فقد (جاك ريكاميه) صوابه .. وأسرع إلى والدها الطبيب يطلب يدها .. رغم أن (جاك) كان أكبر من والدها سنا ! ولكنه من كبار رجال المال وأصحاب البنوك فى باريس !



لوحة جيرار — وقد بدت فيها مدام ريكاميه أكثر نضارة وإشراقاً



لوحة دافيد — تركها قبل أن يتمها حفاظا على كرامته !

وتم زواجهما : برنار ، وجاك ريكامييه .. وأصبحت الفاتنة الصغيرة تحمل اسمها الشهير : مدام ريكامييه !

وتفتحت كنوز الفتنة والأنوثة .. وكانت — فى نفس الوقت — متوقدة الذكاء ، شديدة الطموح ، واستطاعت بجهودها الفردية أن تنال قسطا وافرا من الثقافة ، وممارسة الفن والرياضة وتعلم اللغات .

كرامة الفنان

فى عام ١٨٠٠ كتبت مدام ريكامييه إلى (دافيد) أشهر رسامى عصره آنذاك تقول : « أرجو أن تتفهم ما أرمى إليه من وراء أن أحظى بصورة لى من عملك » . وكانت تربطهما علاقة وطيدة .. وعندما كاد دافيد أن ينتهى من رسم لوحتها (التى يراها القارىء على هذه الصفحات) . علم أنها تجلس أمام فنان آخر من تلاميذه هو (جيرار) من أجل عمل صورة أخرى لها فى نفس الوقت . وعندها ، أرسل دافيد للفاتنة رسالة قال فيها : « سيدتى ، إنى أعلم أن للفاتنات هوى وشغفا وافتتانا بجمالهن .. ولكن يجب أن تعلمى أن الفنانين أيضا يعتزون بعملهم وبكرامتهم ، واسمحى لى أن أتوقف عند هذا الحد » .

وبالفعل .. فما زالت الصورة الشهيرة حتى يومنا هذا لم تكتمل فى بعض أجزائها !

وأتاح لها ثراء زوجها الواسع ، أن تقيم فى قصرها (صالونا) يؤمه رجال الفن العظام ، ومفكرى العصر من رجال الأدب والسياسة . وفى الأمسيات المترفة الحالمة ، تدور المناقشات الهامسة فى حلقات تضم الصفوة من الأعلام الكبار .. ولكن — مدام ريكامييه كانت تؤثر حلقة الفنانين .. لأنهم نجوم المجتمع متألقو الشهرة التى تعبر الحدود إلى آفاق أوروبا والعالم كله ، ولأنهم مرهفو الحس ذوو شفافية وعواطف جياشة تبعث الدفء فى القلوب الخاوية ! إنها لا تشعر بكيانها ولا تحس بوجدانها إلا وسط فنانى باريس المرموقين .. تتخيل جمالها فى لوحات داخل أطر من ذهب فى متاحف العالم ، تسكبها الأنامل المبدعة كضوء مذاب بألوان الحياة على صفحات اللوحات الخالدة !

ويذكر المؤرخون أنه كان لها محبون ومعجبون كثيرون ، من أبرزهم لوسيان بونابرت ، والبرنس أوجستاس ، وشاتوبريان الذى كان من أكبر وأشهر أدباء فرنسا ومفكريها السياسيين ، وكان يكبرها بتسع سنوات فقط ، فقد كان مولدها فى عام ١٧٧٧ ، بينما ولد شاتوبريان عام ١٧٦٨ . وقد خرج سيل من الأبحاث والمؤلفات أخيرا ، تتناول كلها حياة الأديب الكبير وعلاقته بفاتنة باريس .. وكانت التساؤلات غالبا ما تثار حول مدى حبها له أو إعجابها به ،



وهى التى عاشت تعبث بقلوب العشرات من الأمراء والنبلاء والفنانين ، ولا تستقر عواطفها عند حب كبير لشخص بعينه !

وفى عام ١٨٠٥ نكب الزوج بخسائر مالية فادحة أتت على ثروته .. ولكن الزوجة الحسناء ظلت تفتح أبوابها للصفوة من الفنانين والكبراء ..

وقد لوحظ أن (شاتوبريان) كان يتصرف معها ومع ضيوفها وأصدقائها من رواد صالونها ، كمن يملك الدار ويتحكم فى كل ما فيه ومن فيه !

أن الأديب الكبير ــ رغم تعسفه وجبروته ــ كان وفيا لها فلم يتخل عنها حتى آخر أيامها .. وكان يلازمها ملازمة الظل أينما ذهبت ، مما يرجح أنه كان يحبها حباً حقيقيا من أعماقه .. وقد ردت له الجميل .. فقد سهرت عليه فى مرضه الأخير ، وقامت بخدمته رغم فقدانها البصر ... حتى لفظ أنفاسه الأخيرة عام ١٨٤٨ . وكأنها كانت على موعد معه لتلقاه فى العالم الآخر .. فلم يمض عام واحد على رحيله حتى لحقت به عام ١٨٤٩ ..

وفى يوم احتضارها ، التف حولها لفيف من أصدقائها .. وكان أكثرهم وفاء لها فى شيخوختها ووحدتها الموحشة .. هم الفنانون العظام .. كانوا يتأملون قوامها الذى لم يذبل أبدا .. ووجهها الذى لم تفارقه مسحة الجمال الوضاء رغم التجاعيد وبصمات السنين !

وكيف لا ، وقد عاشوا طوال حياتهم يهيمون بحبها وبجمالها الساحر وشخصيتها الآسرة .

شبرد .. فنان أفريقيا المضيئة

كثيرا ما نسمع ونقرأ عن الرحلات الاستكشافية والسياحية إلى أفريقيا . ولكن قصة « دافيد شبرد » مع الغابات والأحراش فى هذه القارة الأسطورية المثيرة .. هى من نوع فريد .. فلم تقتصر على مجرد المخاطرة الفردية فى رحلة سياحية عابرة أو مغامرة بطولية للبحث والاستكشاف ، ولكنها تتطرق إلى تفاعل عاطفى وتعاطف وود إزاء القارة وحيواناتها وطبيعتها الخلابة .

تلك العلاقة الوطيدة بين فنان من ألمع فنانى الغرب المعاصرين وأفريقيا المزدهرة اليانعة ، قد أسفرت عن تسجيل عناصر الجمال الدفين بين غابات وأدغال هذه القارة الساحرة ، وأصبحت حيواناتها المفترسة ووحوشها الضارية ، مادة إبداع فى لوحات عالمية تتسابق المتاحف والمحافل الفنية وجامعو التحف إلى اقتنائها بأغلى الأثمان ..

ويتألق اسم الفنان البريطانى الأشهر دافيد شبرد كأول فنان عالمى أوقف حياته وفنه الرفيع على تخليد مكامن الجمال الأفريقى ممثلا فى رسم الحيوانات والمناظر الطبيعية الخلابة التى تزخر بها غابات أفريقيا ، وكأنها عالم سحرى ملىء بكنوز الإثارة والأسرار والجمال الأسطورى الفريد !

بداية صعبة

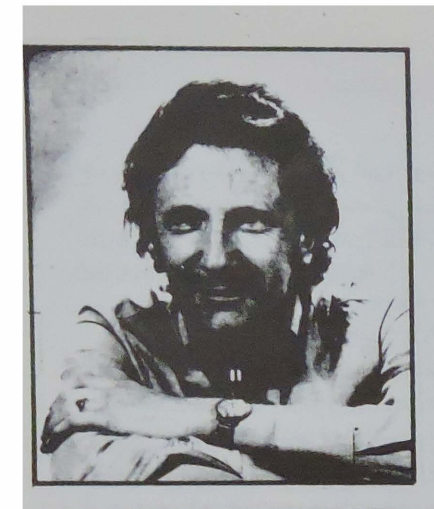
فى طفولته الأولى .. كان دافيد يعكف الساعات الطوال مشدودا بكل حواسه إلى الكتب والمجلات التى تحكى قصص الرحالة والمستكشفين فى أفريقيا .. وكانت صور الحيوانات الكاسرة التى تزخر بها الغابات الأفريقية تثير خياله وتلهب مشاعره ، وبخيال الطفل الخصيب يصنع لنفسه عالما خاصا من المغامرات الوهمية فى ربوع هذا العالم الغامض .. ولم يجد وسيلة أو متنفسا لعواطفه الجياشة إلا أقلامه وألوانه .. يعبث بها على صفحات الأوراق البيضاء ، ليخط رسوما جميلة تعبر عن الغابات والحيوانات الأفريقية العملاقة التى كثيرا ما يرى صورها أو يقرأ عنها بشغف كبير ، وشب الفتى ، وقد تبلورت أحلامه ، ووضع نصب عينيه هدفه الكبير ، ألا وهو السفر إلى أفريقيا ليرى على الطبيعة ما لم يستطع أن يحيط به من خلال القراءة أو مشاهدة الصور المطبوعة التى تفتقر إلى الحياة .. وفى الثامنة عشرة من عمره — مضحيا بكل مدخراته المالية المحدودة — قطع آلاف الأميال إلى نيروبى عاصمة كينيا أملا فى الحصول على أى عمل فى إحدى شركات الغابات والحدائق ، وكان قد قرأ عن حاجتهم لمن يشغل مثل هذه الوظائف الصغيرة قبل رحيله من بريطانيا ، ولكنه لم يوفق فى تحقيق هذا الأمل ، وعاد مخذولا إلى وطنه ..

وساقه حبه الشديد لفن الرسم إلى السعى للالتحاق فى إحدى مدارس الفنون الجميلة ، ولكن إمكانياته المادية المتعثرة حينذاك حالت دون ذلك ، ولم يجد أمامه إلا أن يعمل سائقا لإحدى السيارات العامة لنقل الركاب .. ولم ينس يوما أن ينمى موهبته فى فن الرسم متأثرا ومسترشدا بما يقرأ عنه أو يراه فى المتاحف والمعارض .. وكان يحلو له دائما أن يحكى لأصدقائه سير الفنانين العظام وكيف شقوا طريقهم الوعر حتى أصبحوا فى النهاية ملء سمع العالم وبصره !

فلا غرو أن نرى دافيد وهو يمضى سحابة يومه الشاق فى ممارسة الأعمال المتواضعة ليكسب قوته ، ويقضى ليله البارد الطويل قابعا وسط أكداس الأوراق والألوان والأقلام يمارس فنه الجميل !

حب الأفيال

ولم يقف به طموحه عند هذا الحد ، فقد صمم على أن يحترف الفن مهما لاقى فى مسيرته من عثرات ومتاعب ، وكانت فرصته السانحة فى الحركة والتجوال وبصيص من الأمل لتحقيق أحلامه ، عندما التحق بسلاح البحرية البريطانية كرسام ، فاستغل تلك الفرصة فى إشباع رغباته الفنية ، وسجل فى لوحات ملونة كل ما وقعت عليه عيناه من



إن أمتع أوقات شبرد هى التى يقضيها بين الأغادل يرسم فيها أحباءه أفيال الغابة الأفريقية ، إنه يفضل الفيل عل غيره من الحيوانات وقد أطلق عليه اسم التدليل (جامبو) .

دافيد شبرد .. وحياة الأدغال التى اشتهر برسمها

الجنود والآليات والمناظر وحياة البحر المثيرة ، ومن يوم إلى يوم ، ذاعت شهرته ، وأصبحت لوحاته التى تحمل بصماته المميزة ، تحتل مكانا مرموقا فى مكاتب القادة والمتاحف البحرية وقاعات الوثائق الحربية البريطانية .

وفى عام ١٩٦٠ استطاع أن يكون ضيفا على سلاح الطيران فى قاعدته الجوية فى عدن ، فصمم على أن يحقق حلمه القديم بأن يتجه غربا فى البحر الأحمر عبر المضيق ليزور أفريقيا وغاباتها وحيواناتها الشهيرة على الطبيعة . واستمر فى تجواله حتى وصل إلى كينيا ، واستقر فى نيروبى وقد عزم على أمر فى نفسه وكيف لا وقد زود هذه المرة بالنضوج والتجربة والخبرة وبما يكفيه مؤقتا من المال !

وظل عامين كاملين يرسم الحياة الأفريقية مركزا اهتمامه فى تسجيل الحيوانات على وجه الخصوص ، وشغف إعجابا بالفيلة العملاقة ، فعكف على دراستها ومراقبتها وتسجيل حركاتها وسكناتها حتى أصبحت حبه الأول فى موطنه الجديد . وكانت محصلة هذا العمل المتواصل الذى سعى إليه الفنان بالحب الخالص والرغبة الصادقة ، مجموعة رائعة من اللوحات الزيتية أقام بها معرضه الأول فى أكتوبر عام ١٩٦٢ فى العاصمة البريطانية .

كان المعرض حدثا جديدا وفريدا فى عين المشاهد البريطانى الذى طالما سمع عن حياة الأدغال الأسطورية فى وسائل الإعلام .

الشخصيات البارزة

وفوجىء دافيد بتهافت الجمهور على اقتناء لوحاته ، فرفع أثمانها إلى أرقام مبالغ فيها بالنسبة إليه كفنان يقيم أول معرض فى حياته ، ولكن طلبات الشراء — بالرغم من ذلك — أخذت تتوالى على إدارة المعرض ، وبيعت كل المعروضات فى ساعات قليلة !

ومنذ افتتاح هذا المعرض ، قرر دافيد شبرد ألا يعود إلى الوراء !

واتخذ قراره الحاسم : لقد نذر نفسه وفنه لأفريقيا (ولأصدقائه) من الفيلة وباقى الأسرة الحيوانية فى أدغالها المثيرة !

وحظى الفيل بالمكانة الخاصة فى أعمال الفنان ، وأطلق عليه اسم التدليل الشهير — والذى اقترن باسم دافيد نفسه — (جامبو) ، وكلما ذكر اسم جامبو ضمن مستحدثات الألفاظ الإنجليزية المعاصرة ، قفزت إلى الأذهان قصة الصداقة الوطيدة بين الفنان والفيل الإفريقى المدلل ! فلا عجب أن نرى معظم لوحات الفنان الكبير وقد احتلت صورة صديقه جامبو المكان البارز فيها وقد أضفى دافيد عليه جمالا فنيا يحس إزاءه بالتعاطف والحب والاعزاز .

وبجانب لوحاته عن الفيلة وغيرها من حيوانات الغابة الإفريقية ، مارس دافيد شبرد بكفاءة واقتدار رسم المناظر الطبيعية والآليات والصور الشخصية PORTRAIT وأبدع فيها أيما إبداع . ومن أبرز أعماله فى رسم الشخصيات البارزة ، صورة الملكة الأم وسمو الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ، وكينيث كواندا رئيس جمهورية زامبيا والعديد من قادة الحرب والشخصيات البارزة فى بريطانيا .

القاطرات البخارية

ويعرف عن شبرد ولعه الشديد بالقاطرات البخارية القديمة ، حتى أنها مثلت الاهتمام الثانى عند الفنان بعد الفيل الأفريقى الشهير ، وبلغ هذا الاهتمام مداه حتى أنه اشترى من هيئة السكك الحديدية البريطانية قاطرتين بخاريتين (زنة ١٤٠ طن) من الطراز الفيكتورى الجميل ، بل وتحقق للفنان أكثر من ذلك ، فاستطاع بشهرته وإمكانياته المالية الوفيرة ، أن يشترى محطة كاملة تمتد ثلاثة أميال ، لتتهادى عليها قاطراته الكلاسيكية الرائعة ، وجعلها مزارا عاما للجمهور من مختلف أنحاء العالم . وقد سجل العديد من اللوحات لهذه القاطرات البخارية المنقرضة ، وأضفى عليها

جوا رومانسيايلهب الخيال ، ويعود بالذكريات إلى عصر البخار .. عصر الحب والهدوء والرخاء !

ولعل حب دافيد وولعه بالفيلة ، تلك الكائنات الداكنة العملاقة الدائبة الحركة ، هو الذى جعل الفنان شغوفا بالقاطرات البخارية الرشيقة ، وإذا نظرت إلى إحدى لوحاته من قاطرته وهى تشق الغبار مجللة بسحب البخار ينبعث من حولها ، ستجد تشابها كبيرا بينها وبين الفيل الإفريقى الضخم وهو يهرع إلى مصادر المياه فى هيبة ورهبة محاطا بنفس ما يحيط بالقاطرة من سحب الغبار أو الأبخرة المتصاعدة من أكداس الأوراق والحشائش الرطبة المتراكمة فى أحراش الغابة ..

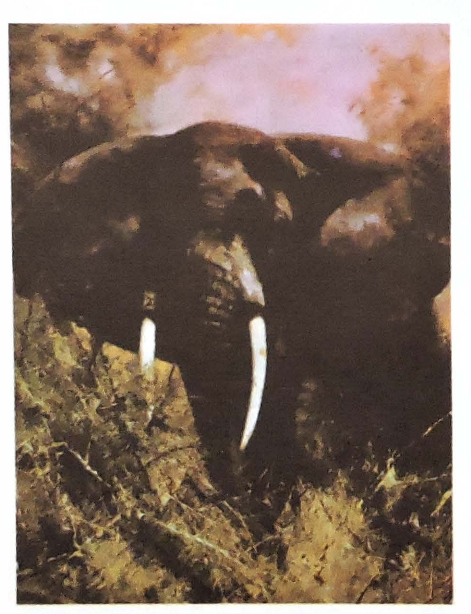
كما أن الآليات قد مارس الفنان رسمها ودراسة تفصيلاتها عندما كان بسلاح البحرية فى فترة نضوجه الأولى ، لذلك كله ، نجد أن دافيد لم يكن رساما يسجل الصور المرئية تسجيلا شكليا فحسب ، بل نراه يتفاعل عاطفيا مع مرئياته ، ويطلق عليها أسماء التدليل وكأنها كائنات بشرية ترتبط بها أوثق الصلات ..

نجومه المفضلة

والملاحظ لأعمال الفنان فى الغابة الأفريقية ، يرى جليا عمق هذه المشاعر فى تمجيد الطبيعة والكائنات الحية وكلها من إبداع الخالق عز وجل ، فلا يملك المشاهد إلا أن يسلم بعظمة الخالق .. ممثلة فى هذا الجمال الطبيعى الذى أخلص الفنان فى تصويره بصدق حواسه ورهافة مشاعره وتفاعله بحب وإعجاب مع عناصر إلهامه !

نعود إلى اهتمام الفنان الأول .. فنجد أن (جامبو) نجمه المفضل ، يليه النمر فى المرتبة الثانية ، ثم تتوالى باقى الحيوانات حتى نصل إلى آخر أسماء القائمة لنجد الأسد ! ويتعجب دافيد : كيف يطلق على الأسد « ملك الغابة » بالرغم من أنه أكثر الحيوانات كسلا وخمولا وبلادة على الإطلاق ؟!

واستمر الفنان فى عطائه الفريد عن أفريقيا ، وطبعت





هكذا نجد شبرد تشابها كبيرا بين القاطرات والفيل الأفريقى

أعماله على الملايين من البطاقات السياحية والتهنئة والأعياد والمناسبات . ليراها العالم أجمع ، وازداد اسمه تألقا ، وتسابق هواة جمع اللوحات والأثرياء والمتاحف وأصحاب القاعات الفنية إلى حجز لوحاته حتى قبل أن يشرع فى رسمها . كما تزاحمت دور النشر فى عروضها السخية لتحظى بطبع أعماله فى مجلدات فنية أنيقة ، وأرسلت العديد من الحكومات الأفريقية والمؤسسات العلمية فى طلب أعمال الفنان وتكليفه بإنجاز اللوحات عن أفريقيا . وأصبح دافيد من كبار أصحاب الملايين ، وقفز ثمن بعض لوحاته إلى أكثر من ربع مليون جنيه استرلينى . وفى عام ١٩٧١ اشترى طائرة من نوع (الهليوكوبتر) لتنقلاته الخاصة بين أحراش أفريقيا . ولقب بأنه أحسن فنان بريطانى يكسب من بيع لوحاته .

كما أنه يعتبر على رأس قائمة الفنانين الذين تطبع أعمالهم أولا بأول وتنتشر فى مختلف أنحاء العالم .

يخلده فى كتب تاريخ الفنون ، وهذا لا يتأتى بالافتعال مهما بلغ الفنان قمة البراعة والعبقرية ، ولكنها حقبات زمنية متتالية يترك الفنان خلالها قريحته لكى تجوب آفاق الإبداع .. بل ربما لكى تنحدر إلى أحط المستويات فى نظر مواطنيه (كما حدث عندما استحدثت المدارس الفنية التأثيرية أو الوحشية أو التكعيبية أو التجريدية ثم السيريالية) ولكن الحكم فى النهاية إلى حركة الإبداع عامة .. وإلى مدى ما يضيفه الفنان إلى التراث الإنسانى من عناصر الثراء الفنى الشكلى أو العقلانى ، وربما — كما هو حادث الآن — من عناصر الغرابة والخروج عن المألوف مما أسميناه مجازا بالتجديد !

المهم فى كل الأحوال هو الإخلاص فى البحث والممارسة دون أن نضع فى اعتبارنا ما قد يصل إليه عملنا أو ما قد تتبلور عنه أبحاثنا الفنية ، وكثيرا ما كانت الصدفة وحدها هى العامل الأساسى فى خلق هياكل فنية وعلمية خالدة .

عناصر الثراء الفنى

ومما هو جدير بالذكر أن دافيد شبرد بثرائه الواسع وشهرته المتألقة كفنان جماهيرى ، لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون هذا الثراء التجارى من أعماله ، سببا فى إنقاص قيمته كفنان مبدع له سمعته ووزنه الفنى الرفيع ، فليس من المستساغ فى عالمنا المعاصر أن يظل الفنان قابعا فى صومعته ، ليعمل فى انطوائية وتجرد ، وأن يخلط دمه بألوانه فى صمت رهيب بعيدا عن مجتمعه ، ومحروما من أضواء الشهرة والذيوع حتى يقال عنه إنه فنان لا يعنى بالمال .. أو أنه لم ينزلق إلى الكسب المادى متخذا فنه سلعة يتاجر بها ! أعتقد أن هذا رأى عقيم عفا عليه الزمن !

لذلك نرى أن دافيد شبرد يرد على التساؤلات بشأن ثرائه الواسع قائلا : « وهل لا بد من حياة البؤس والفاقة لكى أبرهن على أننى فنان ؟! » .

حقيقة ، أن دافيد لم يبتكر مدرسة فنية كمنهاج أكاديمى

حماية الحيوانات

وإذا كنا نورد اليوم فنانا كدافيد شبرد حقق من المجد الفنى والثراء المادى ما لم يتحقق لغيره من الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه ، فهو مثل نابض بالحياة للفنان المخلص الذى يتأثر بالحياة والطبيعة وينهل من مواردها الإلهامية ، كما يؤثر فى مجتمعه ويضفى عليه لمساته الفنية الواعية .. كما أنه يسعد وجدانيا بعمله وإبداعه ، وفى نفس الوقت يكون مركز إشعاع ومبعث سعادة للملايين من البشر ! فالانطوائية فى مجالات البحث فى هذا العصر (عصر الشموليات وسرعة التأثر والتأثير)لم تعد مثار إسعاد أو محل إفادة حتى للباحث أو للفنان نفسه ! لأن عناصر السعادة والإسعاد تخطت حدود الإشباع الخاص إلى عناصر أخرى من أهمها المال والشهرة والذيوع . ولعل تلك العناصر هى فى حد ذاتها أقوى الدوافع إلى الإجادة والاستمرار ! وإن كان هذا هو رأى كاتب هذه السطور ، فليس — بالقطع — هو الرأى الوحيد !



وفناننا الذى أصبح نجم الفن والإعلام كما أصبح مرجعا وخبيرا فى كل ما يتعلق بغابات أفريقيا وحيواناتها من أصدقائه .. نراه ـــ كعرفان بالجميل ـــ يهتم بتأسيس الجمعيات العلمية التى تهدف إلى الحفاظ على الحيوانات الإفريقية وتعمل على حمايتها من الأخطار والانقراض ، ويعتبر أن تأمين سلامتها وإسعادها هو أهم أهدافه فى السنوات الأخيرة . وبلغت مساهماته فى هذا المجال مئات الألوف من الجنيهات ، و يفسر دافيد تصرفه هذا بأنه رد ووفاء لدين فى عنقه لأسرة الحيوانات الإفريقية الوادعة ! وأن ما يفعله من أجلها حاليا هو وفاء ضئيل لعطاء كثير .

ويحدثنا عن هذا العطاء الذى حظى به من رسمه لحيوانات الغابة الإفريقية فيذكر أنه أقام أحد معارضه عام ١٩٦٩ فى (جوهانسبرج) بجنوب أفريقيا ، وكالعادة ، فقد تم حجز جميع لوحات المعرض مقدما قبل الافتتاح .. ولكن الغريب فى الأمر أن اللوحة الواحدة كان يحجزها أكثر من عشرين شخصا فى وقت واحد . ولم يجد الفنان أمامه إلا أن يبيع لوحاته بطريق القرعة لسعداء الحظ الذين يفوزون فى عملية الاقتراع ، والذين دفعوا برضى وعن طيب خاطر مئات الألوف من الجنيهات ..

التفاعل والوفاء

ولعلنا نتساءل عن العناصر التى جعلت للوحات دافيد هذا الصدق الجمالى فى الطبيعة الأفريقية تلك التى حولت لوحاته إلى نافذة مضيئة تطل على الجمال الأفريقى الساحر .

إننا نلحظ فى أعماله تلك الأصالة الخيرة ، والنظرة الواقعية المفعمة بالتعاطف والحب والإعجاب ، فنرى الجمال الشكلى متمثلا فى صورة بصرية متلألئة ، بجانب الجمال الفنى بعوامله ومقاييسه المحسوبة بدقة وكفاءة نادرة ، وازدواج هذين العاملين يقودنا إلى قضية الفن عموما



عندما تتفاعل الأشكال بالمضمون الحسي وترتبط بالوجدان وبشفافية البصيرة عند الفنان .

وقضية الجمال فى حد ذاته عندما يصبح عملا فنيا فهذا موضوع آخر . وهناك نظرية فى (علم الجمال) تقول : « ليس كل ما هو جميل يعتبر عملا فنيا ، ولكن كل عمل فنى جميل » .

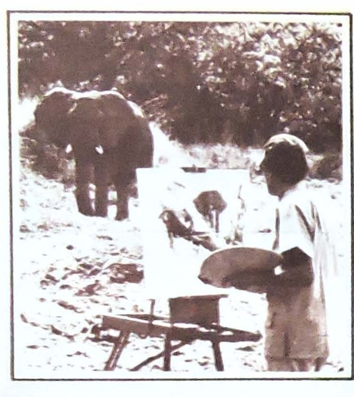
وقد استطاع دافيد شبرد بأن يصوغ مكامن الجمال الشكلى فى إطار فنى رائع ! تلك هى عوامل نجاح أعماله ، بعيدا عن طلاسم النظريات الفنية أو التعبيرات المتخصصة المبهمة ! ويرجع ذلك إلى حبه ــ غير المحدود ــ للطبيعة الأفريقية . فطالما رأينا العديد من اللوحات التسجيلية عن أفريقيا لغيره من الفنانين والباحثين والمغامرين ، ولكن الكثير منها لم يترك فى النفس أثرا أو ميلا إلى الإعجاب والتأمل ، فكانت أشبه بالمعادلات الحسابية أو النظريات العلمية أو المراجع الوثائقية .. لأنها افتقدت لمسة الحنان ونظرة الحب والشعور بالتعاطف . بينما نرى أن دافيد ــ وقد تفاعل بأحاسيسه وعواطفه مع الواقع الإفريقى ــ قد كشف عن الجمال الذى أدركه وافتتن به كهدف فى حد ذاته ، وأصبحت لوحاته وسيلة للتغنى بهذه المشاعر النبيلة الفياضة . فلم يذهب إلى أفريقيا بهدف عدوانى .. أو بنظرة متعالية مدفوعا بأحقاد بيئية أو عنصرية متسلطة ، لذلك ، نرى أن الفنان يؤدى رسالته المثالية وهى : الإحساس والرغبة والانفعال ، ثم التفاعل والاستيعاب والاقتناع .. ثم الإيمان والصدق والعطاء !

ذلكم هو دافيد شبرد ... الذى يمارس اليوم قصة الوفاء لملهمته الجميلة أفريقيا .. ويطلق عليها القارة المضيئة .

لعله أن يزيل من الأذهان تلك التسمية المجحفة : القارة المظلمة أو القارة السوداء ..

وفى قصره الفسيح ، وبين الخمائل المترامية الزاهرة ، تتخللها الجداول البراقة والبحيرات الناعسة فى ربوع الريف البريطانى الوادع ، ينظر الفنان إلى الأفق الجنوبى صوب القارة المضيئة الساحرة ، ثم يقول فى صوت خفيض أشبه بالهمس أو المناجاة :

أرجو أن تبلغ أصدقاءك يا « جامبو » بأننى أعترف بفضلكم جميعا على ، وفيما بقى من عمرى ، سأرد لكم الجميل !



لقد توثقت عرى الصداقة بين دافيد شرد وأصدقائه من الضوارى سكان الأحراش الأفريقية ، فلا غرو أن نراها وقد ألفته كما ألفها .. يقيم بينها وسط لوحاته وأدواته وكأن الغابة كلها مرسم لإبداعاته التى جعلت منه فنانا عالميا مرموقا تخصص فى رسم حيواناته المحببة إلى نفسه .. إنه يتغنى بجمالها لدرجة العشق والهيام !





عندما يحلق الفنان فى الأطياف الوردية



مدام دى بمبادور (إحدى لوحات فرانسوا بوشيه)
وقد رسم لها العديد من صورها الشخصية

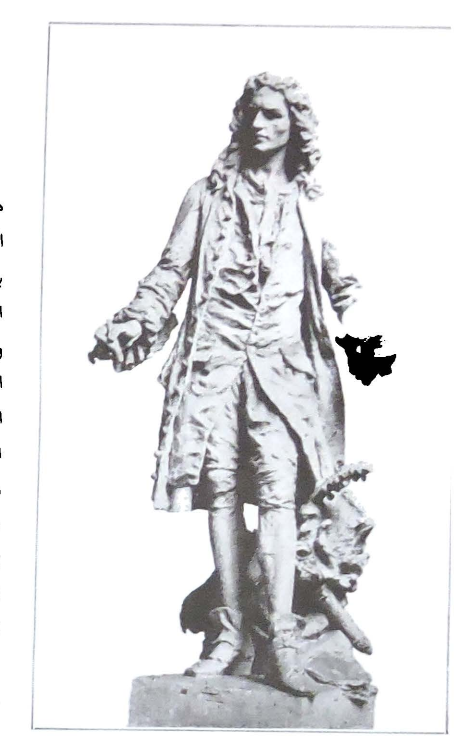
منذ أن استقدم الملك فرنسيس الأول رسام إيطاليا الأشهر ليوناردو دافنشى عام ١٥١٦ ، أصبح الاهتمام بالفن وإكبار شأنه من أهم تقاليد البلاط الفرنسى والأرستقراطية الباريسية المترفة .. على أن معظم الآثار الفنية ذات القيمة التى ظهرت فى فرنسا خلال القرون الثلاثة التى سبقت الثورة ، كان من إيطاليا أو من بلاد الشمال الأوروبى ولا سيما ما يعرف بالأرض الواطئة (هولندا وبلجيكا حاليا) ، أو مسلوباً باعتباره من غنائم الحرب .

وفى القرن الثامن عشر ، عمت ظاهرة رائعة مثلت نهضة فنية تتسم بالفتنة والطلاوة والرومانسية الحالمة .. ساهم فيها مجموعة من الفنانين العظام هم خير من أنجبتهم البلاد الفرنسية .. وقد أوقفوا معظم أعمالهم للبلاط والعائلات الحاكمة والأسر الموسرة . فكان طبيعياً أن تتصف أعمالهم بالرونق والبريق مما يتفق مع هذه النزعة المرفهة فى ظلال النعمة وأروقة القصور وفاتنات المجتمع الباريسى المتأنق .

وقد عرف هذا الأسلوب الفنى باسم (الروكوكو) ، وهذه التسمية مشتقة من كلمة (روكاى Rocaille) الفرنسية ، ومعناها النقوش القوقعية الشكل . وظل الفنانون يحلقون فى الأطياف الوردية مع الجمال المثالى الغارق فى السرف والترف والأبهة .. وكأنهم ليسوا على الأرض . بعيدين كل البعد عن واقع الحياة وتجاربها.وظهر فنانون عظام على أكبر جانب من المهارة التقنية من أمثال واتو وفراجونار



الأرجوحة (جان أونوريه فراجونار) رسمها عام ١٧٦٧ .



أنطوان واتو (أحد أقطاب الروكوكو البارزين) .

وبوشيه وغيرهم وصارت نماذجهم أقرب إلى البريق والرونق المصنوع ، فجاءت أشبه بالدمى الجميلة أو جنيات وفاتنات الميثولوجيات الإغريقية والرومانية ، وشهد عصر لويس الخامس عشر والسادس عشر ومدام دى بمبادور وماري أنطوانيت ، هذا التحليق الفنى الرومانسى فى فرنسا .. وبذلك انفصل دور الفنان عن مسيرة الحياة الفكرية والشعبية فى البلاد .. فكان لا بد من وقفة صارمة فى وجه هذا التيار المترف لتصحيح المسار ..

فلما تبدت فى الأفق بشائر الثورة الفرنسية .. ظهرت موجة وطنية تزعمها فنان شاب هو (لويس دافيد) ، عادت إلى المناهل القومية التاريخية ، ولا سيما بعد أن جرت فى إيطاليا حينذاك حفريات أسفرت عن اكتشافات أثرية هامة من الأطلال والتماثيل الرومانية القديمة .. فألهبت هذه الاكتشافات التراثية مشاعر الفنانين ، وانتشر بينهم التهوس بالفن الكلاسيكي الرصين .. وأخذ دافيد ينقب فى التاريخ الرومانى عن الموضوعات التى تؤازر الثورة وشعاراتها وأهدافها الوطنية .. فأخرج لوحات كانت بمثابة البعث القومى للشعب الفرنسى الذى انفصل عن الفن بنزعة الأستقراطية منذ زمن بعيد .. ولكى يبرهن الملك لويس السادس عشر على مشاركته للشعب فى مشاعره اشترى من دافيد إحدى لوحاته الشهيرة التى أسماها (قسم الإخوة هوراس) . وهى مستلهمة من أحد المواقف الوطنية فى تاريخ الرومان . وهنا نرى كيف أن الملك — لأول مرة فى التاريخ — يتملق الفنان ويحس بتأثيراته الوجدانية على جموع الشعب !

.... وتدور عجلة الزمان ... ويتربع (دافيد) على عرش الفن فى فرنسا بعد أن احتضنته الثورة وأصبح عضوا بارزا فى الجمعية الوطنية وأحد أعضاء محكمة الثورة عام ١٧٩٢ .. ويمتد نفوذه إلى باقى الدول الأوروبية .. ويفرض مذهبه الفنى الجديد الذى أسماه (بالكلاسيكية الجديدة) على جميع فنانى عصره .. ويصل من السطوة والنفوذ إلى حد أنه جعل الفنانين الفرنسيين يحسون أن المقصلة فوق رقابهم ما لم يهتفوا بسقوط (الروكوكو) وبحياة الكلاسيكية الجديدة .. وهكذا قضى على أجمل المدارس الفنية التى وصلت بالمنظورات الشكلية إلى أروع درجات الرونق والتألق الرومانسى الحالم . وخلف لنا ذلك العصر روائع خالدة تحتل أروقة المتاحف العالمية موقعة بأسماء أساطين الركوكو من أمثال : واطو — ريجو — بوشيه وفراجونار .. وغيرهم ..

.. فلنتأمل سويا رائعة فراجونار التى أسماها (الأرجوحة) ولوحة (واتو) الذى أسماها العيد . وبعد لحظات .. سنحس أننا نحلق مع الفنان فى الأطياف الوردية !



العيد (من أشهر لوحات واتو) رسمها عام ١٧١٩

سارة ... اسطورة العصر

بين التألق .. وجنون العبقرية

كثيرا ما حظيت اللوحة بشهرة غامرة طغت على شخصية الفنان ومكانته فى التاريخ .. وعلى سبيل المثال فإن لوحات : الجيوكوندا ، والجيرنيكا ، ومارى أنطوانيت ، ومدام دى بمبادور ، ومدام ريكامييه وغيرها ، قد ذاعت حتى لا نكاد أن نذكر أو نتذكر اسم مبدعها ، وذلك لأهمية موضوع هذه اللوحات عالميا ، أو لأن التاريخ قد ركز على الشخصية التى رسمها الفنان مستلهما تلك المكانة المرموقة الجديرة بأن تكون موضع التسجيل والإبداع الرفيع .

ومن هذه الشخصيات الفذة التى استلهمها الفنانون فى أعمالهم ، سارة برنار ، نجمة المسرح العالمى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . كانت ظاهرة فذة فى عالم التمثيل والإلقاء والثقافة والأناقة والجمال والمغامرات . ومن أسعده الحظ وعاش عصرها ، أو استمتع بأدائها المسرحى ولو مرة واحدة ، أو شهد موكبها عند الاستقبال أو الترحال فى أى عاصمة من العواصم التى كانت تفتح لها ذراعيها بالترحيب والتكريم ، أو من أتيحت له الفرصة وكتب دراسة واعية عن شخصيتها أو نقد أعمالها .. كان يقول دائما عن إيمان بما يقول : إنها ولدت قبل عصرها بمئات السنين ! ولا غرو أن كان مسرحها (مسرح روزين برنار) ــ وهذا اسمها ــ أو سارة برنار ــ وهو الاسم الذى اشتهرت به ــ أكثر مسارح فرنسا بل وأوروبا كلها ، جرأة وتطورا وأخذاً بأسباب المستقبلية والتقدم ، ولذلك عرف عصرها فى التاريخ بالعصر الذهبى للمسرح العالمى !

كانت سارة برنار أشهر نجوم المسرح الفرنسى على الإطلاق .. وقصتها طويلة ، طويلة مثيرة .. حتى أصبحت ملء الأسماع والأبصار على مدى نصف قرن تربعت خلاله على عرش الأضواء والتألق . ولم تكتف بأمجادها الأوروبية آنذاك ، بل رحلت عبر المحيطات إلى الدنيا الجديدة ــ إلى



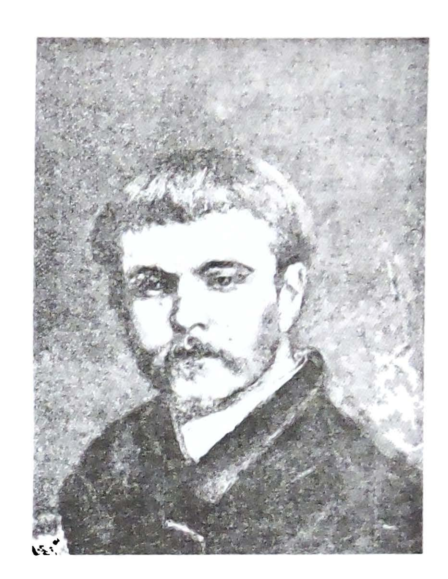
كانت سارة محور اهتمام الإعلام والفن والصحافة فى أوائل هذا القرن .. وكثيرا ما احتلت صورها أغلفة أشهر المجلات العالمية .. وهذه هى إحداها على غلاف مجلة L'illustration كبرى المجلات الفرنسية آنذاك .

الأمريكتين ــ مبتدعة أسلوبا مسرحيا جديدا يجمع بين الشاعرية والإثارة .. كما سحرت ألباب الناس بطريقتها الرائعة فى إلقاء الشعر والمأثورات الأدبية العالمية بصوتها الموسيقى الشجى الدافىء !

وتبارت الأقلام فى وصف فاتنة الجماهير : قلب مستعر يذيب جليد القارة المتجمدة ــ كأنها علم خفاق وقد تحولت جموع الناس إلى جيش يلتف حوله يحبونه ويمجدونه ــ ببغاء جميل الألوان فاتن الأوصاف فى قفص ذهبى صيغت أسلاكه



... لوحة (حفر) لحسناء زمانها سارة برنار .. وهى واحدة من مئات الصور التى كانت تزخر بها الصحافة الأوروبية والأمريكية .. (مجلة IL TEATRO الإيطالية عندما كانت سارة تقوم ببطولة مسرحية فيدورا Fedora) .



الفنان الهائم ليباج .. وقد اقترن اسمه باسمها لعدة سنوات .

من خطوط الطول والعرض من حول الكرة الأرضية — إذا سارت خفقت القلوب على وقع أقدامها وهى تتهادى فى مشية لولبية حالمة تثير الحواس الخمس عند الرجال والنساء على السواء — يداها قد خلقتا لتحتضنا قلوب البشر وتستقبلا ملايين المعجبين فى أنحاء المعمورة — وجه معبر ساحر متكبر وعينان واسعتان نافذتان فى لون البحر ولكنهما تحتويان على أسرارٍ أعمق من كل البحار ! هذه هى سارة برنار !

كانت إذا رحلت فى إحدى جولاتها الفنية إلى أحد الموانىء ، استقبلها الناس رجالا ونساء بالزهور والرياحين والهتاف وصنعوا لها مناديلهم المطرزة بساطا تسير عليه حتى تستقل عربتها المذهبة التى تصنع خصيصاً لها ، وتتحول المدينة المضيفة إلى مهرجانات رسمية وشعبية لتكريم (المعجزة) كما كان يطلق عليها !

عندما همت سارة بالانحناء أمام قيصر الروس عندما دعاها إلى قصره ذات مساء ، منعها القيصر قائلا : « لا يا سيدتى .. هذا واجب علىّ وأنا أحظى بلقاء سارة برنار » !

وهكذا كان يفعل الملوك والقياصرة وهى فى ضيافتهم الخاصة محاطة بالإعجاب والتقدير .

وكان مشاهير الأدباء والشعراء والفنانين ، يتبارون فى التقرب إليها ونظم القصائد ورسم اللوحات من أجلها . وممن شغفوا بها حبّا وهياما أديب فرنسا الأشهر (بيير لوى) وشاعر إنجلترا الكبير (أوسكار وايلد) ، أما (فيكتور هوجو) فكان أن كتب لها مسرحيته الشهيرة (روى بلاس) التى كانت حديث العالم وقتها ، وقد رحلت إلى كثير من دول العالم برفقة (هوجو) بناءً على طلب شعوب تلك الدول ..

ومن هؤلاء الذين اقترن اسمهم باسم هذه الفاتنة الأسطورية ، رسّامنا الفرنسى (ليباج) واسمه الكامل : جول با ستيين ليباج ، فقد رسم لها عدة لوحات لصورتها الشخصية فى أوضاع مختلفة .. لكن أشهرها جميعا هى تلك اللوحة الرائعة التى يراها قراؤنا على الصفحة المقابلة ، وقد كتب الفنان فى أعلى الصورة : إلى سارة برنار — جول باستيين ليباج — ١٨٧٩ . وما أكثر ما أذيع عنهما من قصص وروايات رواها من عاشوا فى عصرها .. ولكن مثل هذه الروايات قد أذيعت عن العشرات والمئات من الشخصيات المرموقة فى عصر سارة .. ولم تقتصر على المفكرين والفنانين فقط ، بل وعن الملوك والحكام والقادة العسكريين وغيرهم من رجالات المجتمع الأوروبى والأمريكى الكبار ..

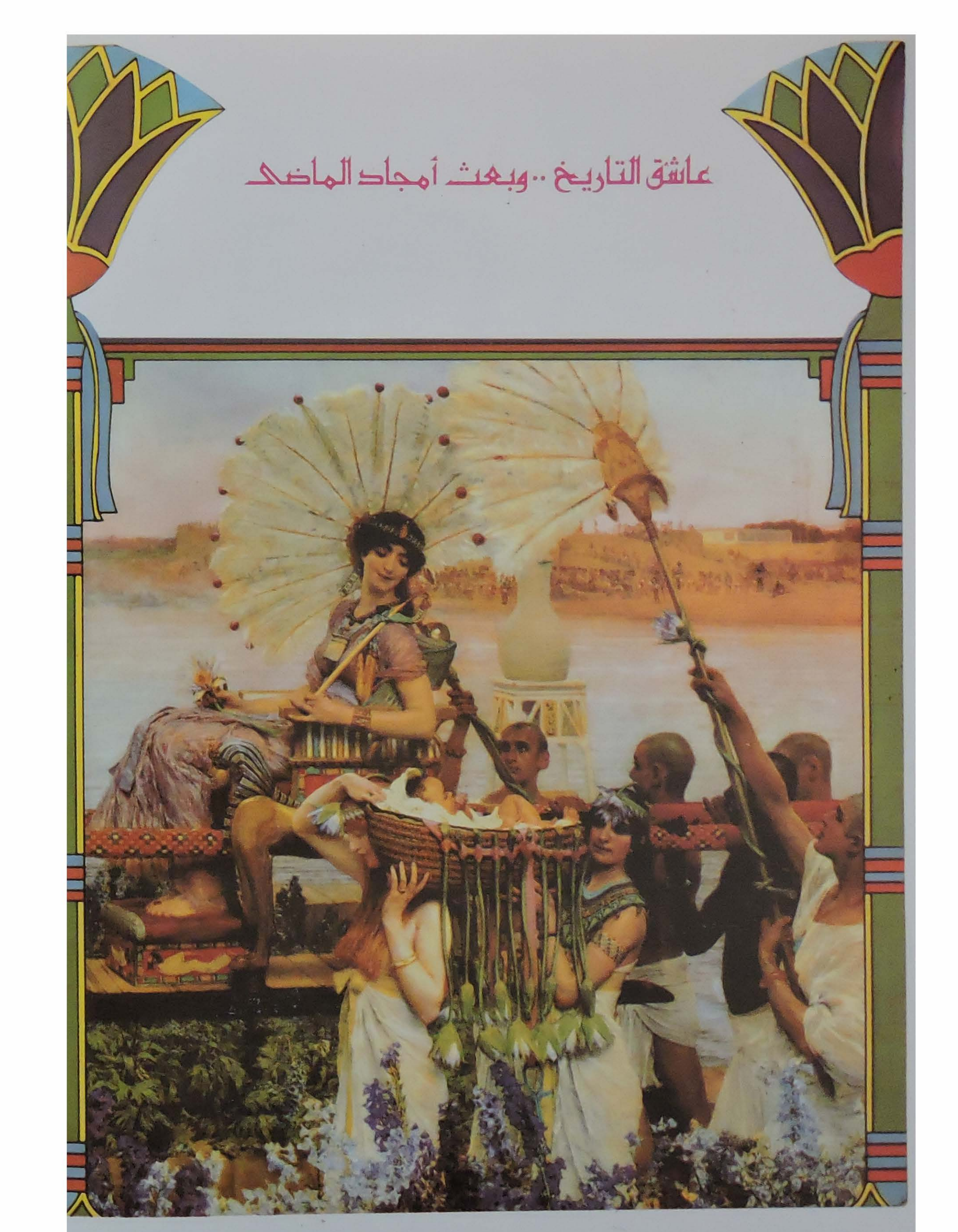
وقد نشر مؤخرا فى باريس مُجلد يحوى أسماء كبيرة للعشرات من هؤلاء ، من بينها : ألفونس الثالث عشر ملك أسبانيا ، وفرانسوا جوزيف إمبراطور النمسا ونابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، وفردينان فوشيه قائد جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، وغيرهم كثيرون .

وحلت نهاية تلك الرحلة المثيرة .. ورحلت سارة برنار عن عالمنا فى ٢٦ من مارس عام ١٩٢٣ وودعتها فرنسا عن بكرة أبيها كما تودع عظماء التاريخ ..



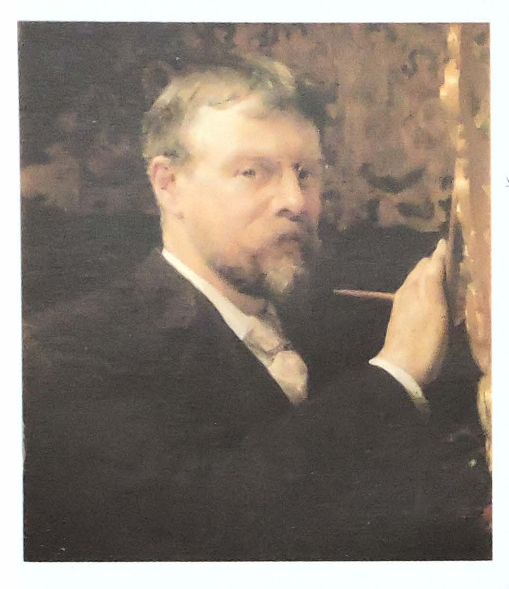
سارة ـ رائعة الفنان الفرنسي جول لباج ، وقد أهداها هذه اللوحة عام ١٨٧٩

عاشق التاريخ .. وبعث أمجاد الماضي



عندما نتدارس روائع الفن العالمى من خلال إبداعات الفنانين العظام ، نرى أن القرن التاسع عشر كان أكثر فترات التاريخ ازدحاما بتحولات المسار الفنى وظهور المدارس والتغيرات الجديدة المتعاقبة ، وما إن حل النصف الثانى من ذلك القرن حتى وجدنا سيلا من النزعات المستحدثة : التأثيرية وما بعدها من الأساليب التعبيرية والرمزية والمستقبلية والوحشية .. ثم ظهرت مع مطلع القرن العشرين الأساليب ذات الطابع الخاص ، أو بمعنى آخر ، طغت شخصية الفنان وعالمه الخاص على حركة الإبداع ، وبذلك بدأت مرحلة (الفن للفنان) ، وتوالت عوالم التكعيب والتجريد والدادية والسيريالية ومتاهات ما وراء الطبيعة واللاشعور والأحلام وغيرها من الأبحاث الذاتية الغارقة فى الفردية ..

وقد يُظن أن هذه الاجتهادات والتسابق الفردى اللاهث كانت هى طابع المناهج الفنية عند جميع الفنانين فى مختلف أنحاء المعمورة .. وهذه فكرة خاطئة — وإن كانت ترسخ فى أذهان الكثير من الفنانين ذوى الثقافات المحدودة — لأن أى بحث فى أى فرع من فروع المعرفة يحمل بصمات صاحبه ، يدخل فى تاريخ الفكر الإنسانى ، ولكن ليس بالضرورة أن يفرضه على غيره ممن يعنون بنفس اهتمامه .. فمدارس الفن كلها — قديمها وحديثها — تسير فى خطوط متوازية ، وتكون بمثابة روافد لنهر الإبداع الكبير .. ولكل فنان حقه فى حرية اختيار أسلوبه ومنهجه الذى يحسه ويرتضيه لنفسه .. وليس فى الفن قديم أو حديث أو متخلف أو متطور ، طالما كان تعبيرا مخلصا صادقاً جادا معالجا بتقنيات فنية واعية مدروسة .. لأن الصراعات فى هذه النزعات المستحدثة ما هى إلا اجتهادات فى طريقة الأداء (التكنيك) ، أما المضمون الذى تحتوى عليه الفنون ، فهو ذات الفنان وثقافته وتأثراته ونفسيته وفلسفته وقناعته ورؤيته الخاصة .. يعبر بها بأى أسلوب وبأية طريقة دون



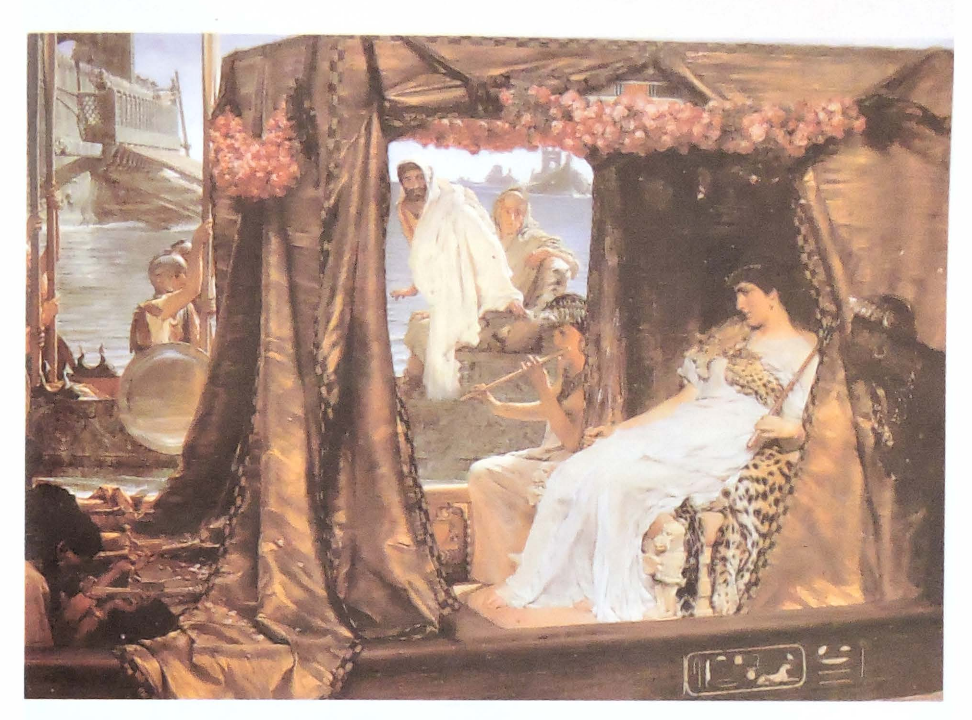
سير لورانس ألما تاديما (صورة رسمها لنفسه عام ١٨٩٦) .

افتعال أو تصنع أو تقليد ، وحينئذ يكون إنتاجه فنا خالصا ليس فى ذلك شك ..

ومما حدا بى إلى أن أسوق هذه التقدمة ، أننا بصدد الحديث عن فنان من ألمع فنانى التاريخ وأكثرهم نصيباً من الشهرة والتألق .. ومع ذلك ، وبالرغم من أنه عاش فترة التحولات الخطيرة فى النصف الثانى من القرن الماضى وأوائل القرن العشرين ، إلا أنه لم ينزع إلى أى من المدارس الفنية المستحدثة التى توالى ظهورها فى تلك الفترة الخطيرة .

إنه الفنان ، هولندى الأصل ، بريطانى الثقافة والإبداع والانتساب العضوى حتى أصبح يمثل الفن الفيكتورى البريطانى فى القرن التاسع عشر أروع تمثيل ، إنه لورانس ألما تاديما . Sir Lawrence Alma Tadema .

وعندما استعرضنا سويا روائع الفنانين الإنجليز على هذه الصفحات ، قلنا إن الفن البريطانى — بصفة عامة — كان ملتزما كطبيعة الإنجليز أنفسهم .. و لم يكن من اليسير أن



لورانس ألما تاديما (١٨٣٩ ـ ١٩١٢) ، أبدع هذه اللوحة عام ١٨٨٣ وهى تمثل كليوباترا فى سفينتها الملكية حالسة على عرشها فى انتظار وصول مارك انطونيو عام ٤١ ق.م وهو يبدو متأهبا للنزول من قاربه الذى استقله من سفينته الحربية إلى سفينتها الملكية قريبا من الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

يقتفى هذا الفن أثر النزعات الحديثة التى كانت تتمركز فى فرنسا آنذاك دون أن ينبع التجديد من داخل الفنانين أنفسهم ، ولذلك رأينا لورانس ألما تاديما « اسمه الهولندى الأصلى ألما تاديما ، وقد أضاف إليه اسم لورانس عرفانا بفضل الوطن البريطانى الجديد » رأيناه ملتزما أشد الالتزام بأسلوبه الواقعى الطبيعى دون أى شطط أو لجوء إلى المعالجات التأثيرية أو التجريدية أو غيرها .. بل إنه أقرب إلى الكلاسيكيات الجادة الرصينة وجماليات الفنون الأكاديمية الرشيقة ، بل أضاف إليها رقة ودقة وتأنيا فى رسم التفاصيل والدقائق المذهلة .. ومن شدة ولعه برسم المسطحات الرخامية الملساء بواقعية معجزة ، أطلق عليه اسم Marble Artist .

ولكن ما يميز فناننا من بين عباقرة الفنانين الكبار ، هو ميله إلى دراسة قصص التاريخ القديم ، وبخاصة حياة الإغريق والرومان والفراعنة .. حتى إنه فى عام ١٨٦٣ ، حصل على الجائزة العالمية (الميدالية الذهبية) عن أحد معارضه الخاصة التى عرض فيها خمسا وعشرين لوحة تمثل الحياة الفرعونية .. وما زالت هذه الروائع تعتبر مرجعاً فنيا تاريخيا لتجسيد الواقع الفرعونى فى أروع صورة عرفها تاريخ الفن الحديث . وعندما سئل الفنان عن سبب شغفه بالجمال الفرعونى وتسجيل الحضارة الفرعونية ، كانت إجابته الشهيرة : « إن أول ما يلقن للطفل فى دراسته عن الحضارات الأولى هو



الحاوى المصرى فى أحد القصور الرومانية فى بومبى .. رسم تاديما هذه اللوحة عام ١٨٧٠



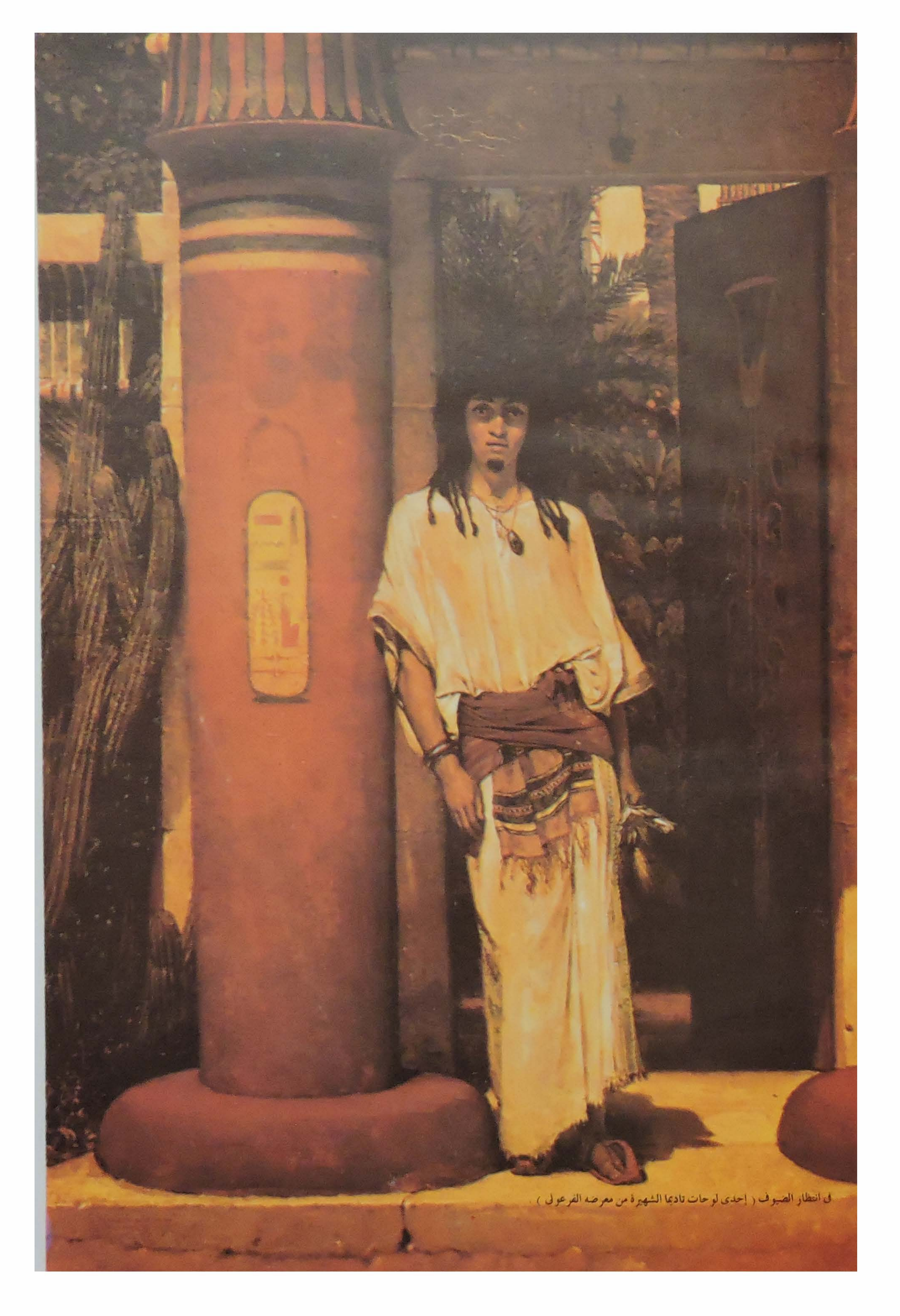
وزير فرعـون : إحدى روائع تاديما عام ١٨٧٤ وقد عرضت فى نفس العـام بالأكاديمية الملكية بلنـدن ، وكانت موضع دراسة ومثار إعجاب من المحافل الفنية والتاريخية والمهتمين بعلم المصريات والحضارات القديمة

الحضارة المصرية القديمة ، بل إننا كلما درسنا منابع العلم أو الفن ، وجدنا أن هذه المنابع ما هى إلا روافد لنهر النيل العظيم حيث ظهرت الحضارة الفرعونية كمنارة لحضارات العالم الأخرى !» . وبهذه المناسبة ، نرى أنه مما يدعو إلى العجب أننا — فى مصر — لم نفكر فى أن نصدر مجلدا فنيا عن هذه الروائع الفرعونية التى تتناقلها محافل العالم أجمع وتحتفظ ببعضها (أصول اللوحات) أو بنسخ مطبوعة منها ! وعلى المسئولين — كرسالة قومية ووطنية — أن يعملوا على الحصول على مستنسخات منها وطبعها كمراجع فنية وتاريخية على أكبر جانب من الدقة والروعة والقيمة الفنية والتاريخية ، وأعتقد أن هذا سهل ميسر .. فما زالت أعمال تاديما عن تاريخنا الفرعونى تحتل مكانها ومكانتها فى متحفه الذى يحمل اسمه فى قلب العاصمة البريطانية لندن .

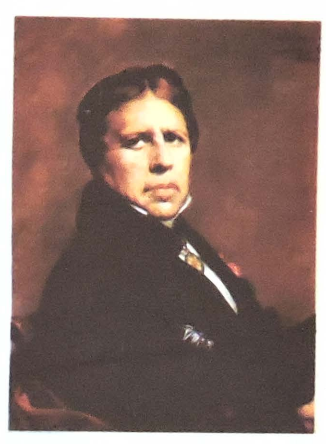
نعود إلى لورانس ألما تاديما فنجد أن إبداعاته عن فنون الحضارات القديمة ، قد رفعت من شأنه كفنان عالمى يعيش فى العصر الحديث بعد أن تلاشت إبداعات العمالقة فى عصور النهضات الفنية التاريخية ، وحصل على الجائزة الذهبية الكبرى مرات عديدة كان أولها عن معرضه الفرعونى فى عام ١٨٦٣ ، وآخرها فى أوائل هذا القرن عام ١٩٠٦ ..

ولا غرو أن استأثر لورانس ألما تاديما بمتحف لأعماله يحمل اسمه الشهير فى العاصمة البريطانية .. ويعتبر متحفه هذا مزارا فنياً عالمياً بجانب المتاحف الكبرى التى تحوى آيات العبقرية الإنسانية عبر عصور التاريخ .

.. ولنتأمل سوياً ملامح فنه الرومانسى الرائع الجميل .. ولنتمثل فى أذهاننا جماليات الفن التشكيلى .. التى هى أولا وأخيرا لمسة حانية متألقة فى وجدان البشرية !



فى انتظار الضيوف (إحدى لوحات تاديما الشهيرة من معرضه الفرعونى)



جان أوجست دومينيك آنجر

مثالية الفن بين الجمال والجلال

بين الجمال والجلال .. كانت معارك الإبداع فى ذلك العصر الفنى المتألق .. عصر تربع فيه الفنانون على عرش الحركة الفكرية الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر ، بل تعدى نفوذهم إلى مجالات السياسة والحكم وتغيير مجرى الأحداث التاريخية والاجتماعية وقيادة الشعوب ! حتى أننا رأينا — فى سنوات الثورة — أن لويس السادس عشر ملك فرنسا يتقرب إلى الفنان (دافيد) ليبرهن للشعب على مشاركته فى مشاعره الوطنية ، بعد أن انتهج الفنان أسلوبا ذا موضوعات وطنية تراثية مستمدة من الأيدلوجيات التاريخية الماضية والميثولوجيات الإغريقية الرومانية وظل دافيد يقود الحركة الفنية الكلاسيكية حتى مات عام ١٨٢٥ بمنفاه فى بروكسل بعد أن تقوض حكم نابليون ونفى إلى (سانت هيلانة) .

وهنا يظهر آنجر (١٧٨٠ — ١٨٦٧) على مسرح الأحداث ، متزعما حركة الإبداع بعد وفاة أستاذه دافيد ، وبذلك أصبح زعيم الفن الكلاسيكى فى فرنسا كلها . ولم يشذ آنجر عن مبادىء أستاذه فى تمسكه باستخدام اللغة الكلاسيكية ، وباعتبار أن (الرسم) هو الأساس فى فن التصوير وأن اللون أمر ثانوى يكاد يمكن إغفال حسابه .. ولكن الاختلاف الجوهرى كان يكمن فى إيمان (دافيد) بالجلال .. أى الجمال الرياضى المتمثل فى النحت الإغريقى الرومانى . أما (آنجر) الذى تأثر برافاييل (أحد أقطاب عصر النهضة الإيطالى الأفذاذ) . فكان يؤمن بجمال الأشكال الطبيعية المحورة تحويرا مثاليا .. ولنقل بعبارة أخرى : إن دافيد كان ينشد الجلال ، فى حين كان آنجر ينشد الجمال . على أن كليهما كان يعارض الواقعية ويؤمن بالمثالية !

وما أن أصبح آنجر زعيم الفن الأكاديمى فى فرنسا عام ١٨٢٥ حتى فاق أستاذه فى تشدده ودكتاتوريته فيما يتعلق باتباع تعاليمه بكل دقة ، واستن قواعد ثابتة للفنانين كالسلم لا بد من صعوده درجة بدرجة لكى يصلوا إلى المجد والشهرة : اجتياز الامتحان لدخول مدرسة الفنون الجميلة — قضاء عدة سنوات فى العمل الدائب وفق التعاليم الراسخة المتوارثة — العرض بالصالون الرسمى — الفوز



السيدة الجالسة (مدام مواتسيه) ـ بدأ آنجر في رسمها عام ١٨٤٥ وظل يغير ويبدل ويضفي عليها اللمسات من حين لآخر حتى عام ١٨٥٧ . ولم يوقع على اللوحة باسمه إلا في عام ١٨٦٥ !!



السيدة ريفير ــ رسمها عام ١٨٠٥
وهى واحدة من عدة صور لهذه الفتاة الجميلة

بالجوائز والميداليات البرونزية ثم الفضية ثم الذهبية .. وأخيرا .. الحصول على جائزة روما بالنسبة للقلة المحظوظة من الأفذاذ .. أما تعيين الفنان عضوا بالأكاديمية .. فكان قمة هذا المجد المنتظر ! وهكذا بات من المتعذر أن يعترف بالفنان ما لم يرض عنه رجال الأكاديمية ، وهم المسيطرون على مسار الفكر الفرنسى بوجه عام .

وهكذا ظل آنجر .. يتزعم الحركة الفنية الملتزمة بالقواعد التى وضعها بنفسه ، حتى ظهرت فى أواسط القرن التاسع عشر جماعة متمردة على قواعد الأكاديميين .. أخذ أعضاؤها يفرون إلى قرية صغيرة تدعى (باربيزون) يعتنقون الواقعية ويرسمون من الطبيعة مباشرة .. وعرفت هذه المجموعة المتحررة باسم (جماعة باربيزون) ، تزعمها الفنان (تيودور روسو) الذى تألق هو وزملاؤه بعد ذلك فى عالم الإبداع العالمى الرفيع .

نعود إلى جان أوجست دومينيك آنجر ، فنجد أنه كان رساما لا يبارى فى رشاقة الخط ومتانة البناء ورهافة الحس بشكل ينم عن الأستاذية وروعة الأداء ونبوغ العبقرية .. وأهم ما خلفه لنا الفنان هو مجموعة من الصور الشخصية برع فيها بشكل معجز .. بما فيها صورته الشخصية كذلك .. ولا يمثل المنظر الطبيعى عند آنجر إلا عاملا مساعداً كخلفية للصور الشخصية التى يعتبرها الأساس فى لوحاته ، ولعل اللوحة التى يراها القارىء على الصفحة المقابلة ، وهى صورة (مادموازيل ريفيير) خير مثل على خصائص فن آنجر من حيث رشاقة الخط ورصانة البناء ومثالية الجمال .. إلا أن هذه اللوحة قوبلت بالنقد والتجريح من مؤيدى مذهب (دافيد) عندما عرضت فى صالون باريس عام ١٨٠٦ واتهموا آنجر بالعودة إلى الطراز القوطى .

وهكذا كانت حركة الإبداع فى عصر كان الفنانون فيه يخوضون معركة سامية لكى يختاروا بين الهدفين النبيلين : الجمال أو الجلال !.



مدموازيل ريفير

كلاى آخر بعيدا عن الملاكمة :

مأساة الانسان المعاصر .. فى لوحات ساخرة

هنريش كلاى .. غير محمد على كلاى ..

الأول فنان رسم فى لوحات ساخرة قصة الإنسان ومأساته فى هذه الحياة و لم ينل حظه من الشهرة رغم إعجاب النقاد بأعماله .. أما كلاى الآخر فقصته معروفة مع النجاح والثروة والشهرة !.

« هنريش كلاى » فنان ألمانى سمع عنه العالم بعد وفاته ، ولكنه كان انطوائيا متقوقعا فى حياته لأسباب لم يعرفها أحد .. ولعله كان يعانى — لسبب أو لآخر — من شعور مأساوى بالمرارة .. شكلت أحاسيسه على تلك الرؤى القاتمة التى اصطبغ بها فنه الساخر . طال به العمر حتى مشارف العقد العاشر ، فقد ولد عام ١٨٦٣ وتوفى نحو عام ١٩٥٢ . قد لا يصادفك اسمه بين المشاهير العالميين من فنانى أوربا البارزين ، وقد لا يكون معروفا بالقدر الكافى خارج حدود وطنه ، مثله مثل آلاف الفنانين والمفكرين العظام ممن آثروا الانطواء والتأمل فى ملهاة المأساة الإنسانية ومحنة البشرية !

هذا ما فعله هنريش كلاى .. إذ تعدى واقع مجتمعه ، بل تحدى طبيعة الحياة ومنطق الأشياء .. وابتدع عالمه الخاص المفعم بالأحلام والرؤى والأطياف ، وسيطر عقله الباطن ببراعة على شخوصه الأسطورية التى عبر بها عن رغباته المكبوتة . وكما يقول داروين : إن الأحلام هى خلاصة حياة ونوازع نفسية وجسدية لا تجد متنفسا لها إلا فى عالم الموت الأصغر وهو النوم ! فإن الفن يقوم بنفس الدور فى الحياة الواعية . ولذلك نرى أن أعمال « كلاى » ليست مجرد رسوم ساخرة لمظاهر واقعية ، ولكنها تحليل نفسى لحياة مليئة بالحركة ومفعمة بالحياة والانفعالات المتصارعة . وقد يكون هذا التعبير (عالم الفنان الخاص) تعبيراً ذاتياً ، ولكن الملايين من البشر تشارك الفنان إحساسه بتلك الرؤى الغامضة ، وتعايش عالمه وتتفاعل معه وتنفعل به ويصبح



هنريش كلاى بريشته

منطلقا لأحلامهم كذلك !

نشأ هنريش كلاى كأى فنان ذى موهبة فذة ظهرت مبكرة فى سنوات عمره الأولى ، وكان نبوغه فى الرسم حديث أهل بلدته فى وادى الراين ، وألحقه والداه بأكاديمية الفنون الجميلة حيث تتلمذ على فنان ألمانيا الكبير « فرديناند كيلر » الذى عنى به عناية خاصة وأرسله على نفقة الدولة إلى ميونيخ ليتم دراسته الفنية العالية . وكما هو الحال فى جميع المناهج الأكاديمية ، أجاد الأساليب الواقعية الملتزمة وتفوق

فيها على رفاقه وأساتذته ، وعرفت أعماله طريقها إلى المعارض والمتاحف ، وتسابقت قاعات الفن على شراء إنتاجه أولا بأول ، وقد أجمع النقاد حينذاك على أن هذا الشاب سيكون له دور مؤثر فى الحركة الفنية الألمانية ! ولا غرو أن نرى لوحات كلاى وهو فى تلك السن المبكرة فى الفترة بين عامى (١٨٨٨ ، ١٨٩٢) معروضة فى متحف ميونيخ بجانب أعمال الخالدين من فنانى ألمانيا العظام . وذاعت شهرته ، بل وتألقت حتى صارت حديث ألمانيا كلها عندما كلف بتنفيذ اللوحات الحائطية الضخمة التى تحكى تاريخ ألمانيا ، وخصصت لهذه اللوحات الرائعة عدة مبان حكومية فى (بادن بادن) ، واعتبر منذ ذلك التاريخ فنان الشعب الألمانى الشهير !

الانطلاق إلى عالم الرؤيا الخاصة

بعد هذا النصر الكبير الذى حظى به الفنان ، لجأ إلى فلسفة التحول الاجتماعى فى الشعب الأوروبى عامة والألمانى خاصة : ألم بأسرار التقدم الصناعى وتحول الطاقة من عصر البخار والفحم إلى عالم الكهرباء والصناعة العصرية المتقدمة ، وأخذ يعبر بسخرية لاذعة عن تفتت الكيان الإنسانى بين تروس المصانع الصاخبة .. ولجأ إلى الرسوم السريعة الهازئة من سيطرة الآلة على البشر ، ومن تكالب الناس على بناء (الحضارة) الحديثة وهم فى نفس الوقت يقومون بهدم القيم والسلوك المهذب والترابط بينهم ! وكانت أعماله فى معظمها كالرسوم الصحفية النقدية ، تطبع الابتسامة على الشفاة ، ولكنها تترك فى الوقت ذاته أثراً عميقاً فى العقل والضمير والوجدان .

وما نراه على هذه الصفحات اليوم من رسوم الفنان ، ليس « هنريش كلاى » صاحب اللوحات الحائطية الضخمة فى « بادن بادن » ، ولا هو صاحب الأعمال الخالدة فى متحف ميونيخ ومعظم المتاحف الألمانية الأخرى ، ولكنه الفنان الفيلسوف الساخر الذى ضاق ذرعاً بمظاهر الحضارة المزيفة ! إن التقييم الفنى لهذه الرسوم يصل بها إلى مرتبة اللوحات المتكاملة من الوجهة الفنية ، من

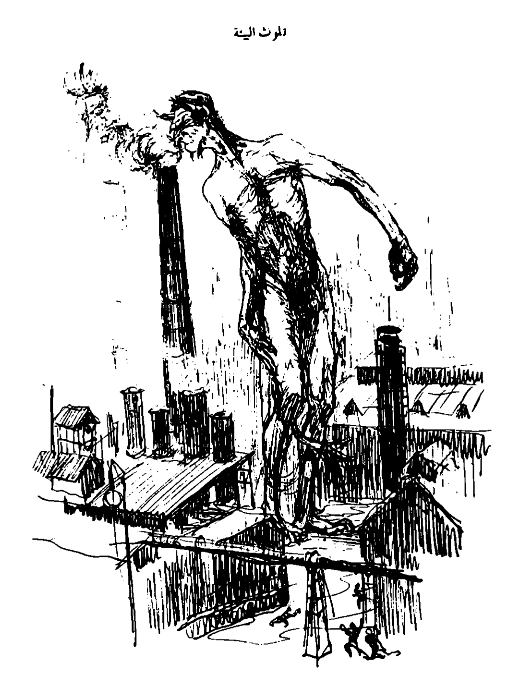


شيش كباب بشرى

حيث البناء المدروس والخط المنطلق الرشيق والموضوع الهادف والحيوية النابضة . وهى فى مجملها بحث رائع من أبحاث « الجروتيسك » التى تتسم بالملهاة الكوميدية ذات الصبغة الإنسانية .

وكثيرا ما نرى الفنان وقد لجأ إلى تصوير المدنية الحديثة على هيئة غابة أسطورية تسكنها الأشباح والشياطين والمخلوقات الممعنة فى الغرابة والسخرية ، فهى خليط بين الحيوانات والآدميين .. كما فعل الفنانون اليابانيون فى القرن

التلوث البيئة



الوليمة .



الثالث عشر ، حيث تميزت تلك الحقبة من تاريخ الفن اليابانى بهذه الملامح الخرافية .

وإذا كان هذا التعبير القاسى يبدو غريبا وشاذا من وجهة النظر العقلانية ، إلا إنه تجسيد منطقى من وجهة نظر الفنان لروح العصر الذى غلبت عليه .. سيطرة المادة وتداعى القيم والفضائل وشراسة آلات الحرب والدمار .. ولذلك ، انتهج كلاى نوعاً خاصاً من السيريالية النقدية اللاذعة بأسلوب جماهيرى بسيط وكأنه السهل الممتنع ، فنرى انفعالاته من خلال رسومه قد تثير الضحك ، ولكنها تبعث على الشفقة !

الفنان وأطياف الغموض

وكأى فنان درس الفن الأكاديمى وتنقل بين (الأتيليهات) الدراسية ، كانت المرأة — كمصدر للإلهام ورمز للجمال — ممثلة فى أعماله كومضة نور بين تراكات الظلام النفسى الكئيب .. فنجد أن كلاى قد أظهر جمالها ومفاتنها فى صورة تكاد أن تكون مثالية بمقاييس الجمال الفنى والبصرى على السواء .

وقد جنح الفنان إلى معادلات غامضة فى رسومه ، فقد صور الحيوانات بشكل جعل المحللين والنقاد فى حيرة .. ولكنهم اتفقوا على أن الرمز هو البناء الدرامى ومحور إبداعه بصفة عامة ، وأنه نتيجة منطقية لمعاناته وفلسفته الخاصة تجاه مجتمعه الصناعى (المتقدم) !

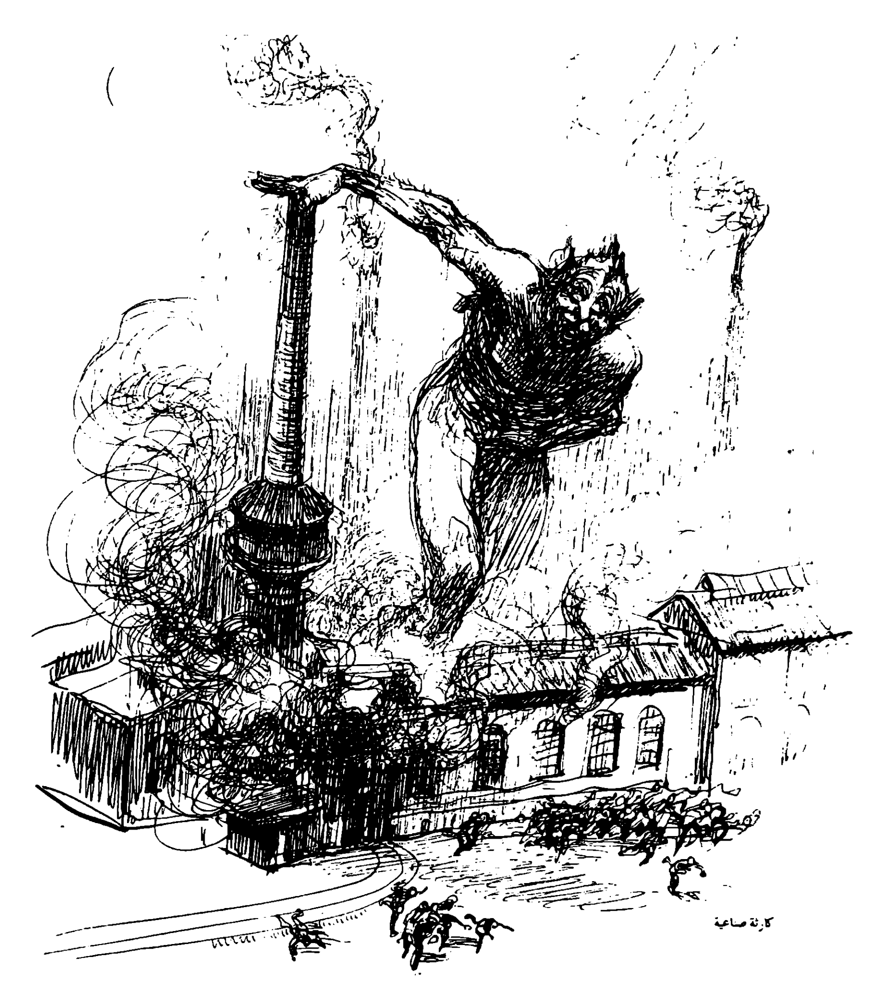
وبالرغم من أن هنريش كلاى بخيالاته وانفعاله وثورته ونقده اللاذع قد انفرد بأسلوبه المميز ، وأصبح علامة بارزة فى مسيرة الفن الألمانى الحديث ، إلا أننا لم نعثر فى المكتبات العالمية على ترجمة لحياته مفصلة كباقى الفنانين الكبار ! وكل ما وصل إلينا عن الفنان لا يعدو أكثر من خمسة كتب هى أقرب إلى (الألبومات) المصورة ، اهتمت أساساً بنشر أعماله التى كانت تطبع تباعا فى عدة صحف أوروبية شهيرة فى أعوام ١٩٠٩ — ١٩١٠ — ١٩١٢ — ١٩٢٣ —

الهجوم .

زيارة مجاملة .

المرح .




كارثة صناعية

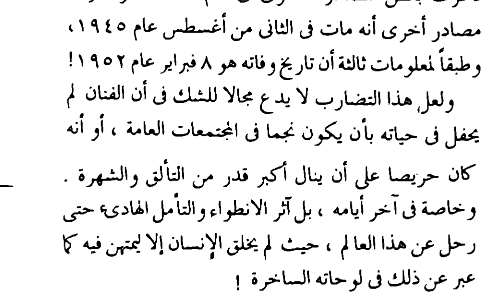
١٩٣٩ . وبعد هذا التاريخ الأخير احتجبت أعمال الفنان ، كما انقطعت صلته بالعالم نهائياً . ويبدو أن إنتاجه الفني كان مثل حياته الخاصة .. يلفه الغموض والانطواء داخل أسوار التأمل والعزلة الموحشة ، ولا شك أن تلك العزلة قد فوتت على الفنان فرصة التألق والانتشار العالمى اللائق بمن لديه مثل تلك العبقرية النادرة !

وفى كتابه الأخير عام ١٩٣٩ كان الناشر — فى مقدمته — يتساءل عن الأسرار الغامضة التى تلف حياة الرجل .. ولم يستطع أن يورد شيئاً ذا قيمة علمية لاستجلاء بعض جوانب حياته الطويلة المثمرة ..

ومن مجموع ما كتب عن كلاى فى كتبه الخمسة ، أوردنا هذه المعلومات التى يراها القارئ على هذه الصفحات .

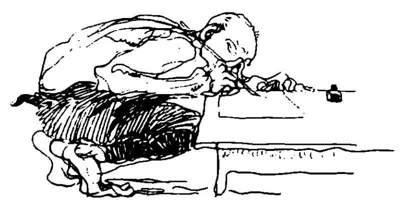
ومن عجب أن تاريخ وفاة الفنان .. هو أيضاً لم يعرف على وجه التحديد ! فقد قرأت فى مقدمة آخر كتاب من الكتب الخمسة — وقد صدر عن مؤسسة (دوفر) بنيويورك — أن تاريخ وفاة هنريش كلاى لم يكن أحسن حظاً من حياته نفسها .. كل شىء ينتابه الغموض .. فقد

معزوفة لمن يفهمها .



ذكرت بعض المصادر أنه توفى فى عام ١٩٤٠، وذكرت مصادر أخرى أنه مات فى الثانى من أغسطس عام ١٩٤٥، وطبقاً لمعلومات ثالثة أن تاريخ وفاته هو ٨ فبراير عام ١٩٥٢ !

ولعل هذا التضارب لا يدع مجالا للشك فى أن الفنان لم يحفل فى حياته بأن يكون نجما فى المجتمعات العامة ، أو أنه كان حريصا على أن ينال أكبر قدر من التألق والشهرة . وخاصة فى آخر أيامه ، بل آثر الانطواء والتأمل الهادىء حتى رحل عن هذا العالم ، حيث لم يخلق الإنسان إلا ليمتهن فيه كما عبر عن ذلك فى لوحاته الساخرة !



موريللو .. فنان الطفولة المشردة

كان عصر النهضة الإيطالى أو العصر الذهبى فى الفن الأوروبى — كما يطلق عليه المؤرخون — بمثابة الشعلة التى أنارت بصائر الفنانين .. وأثارت خيالاتهم ووجدانهم فى كل مكان .. ولا سيما فى بلاد الشمال واسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا . وكانت فى كل هذه الدول نهضات ، منها ما كان (نهضة مبكرة) فى القرن الخامس عشر كما حدث فى إيطاليا



الشحاذ الصغير .

الضائعون فى المدينة



ودول الشمال (الأراضى المنخفضة وخاصة هولندا) ، ثم تحولت عصور النهضة هذه فى أواخر عهدها إلى ما يعرف بطراز النهجية ، أى النسج على منوال الرواد الكبار ، والانغماس فى التقليد بنفس أساليبهم ونهجهم ، ورأينا فى مقالات سابقة كيف ظهر فن (الباروك) فى القرن السابع عشر ثم طراز (الروكوكو) فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .

** وفى أسبانيا ظهر فن الباروك فى آخر القرن السادس عشر واستمر حتى أواخر السابع عشر .. وظهر فنانون عظام من أمثال زورباران وفيلاسكويز وموريللو .. وهو فناننا فى هذا اللقاء ..

ونلاحظ أن الفن الأسبانى يحظى بمكانة رفيعة فى التاريخ منذ أوائل القرن السابع عشر بالرغم من أن أسبانيا قد وصلت إلى كونها قوة سياسية واقتصادية عظيمة فى القرن السادس عشر .. ولكن إنتاجها فى الفن لم يصل إلى هذه الدرجة آنذاك . وجاءتها القوة الدافعة من الخارج كالفن الإيطالى والفن الفلمنكى وبذلك تكوّن الفن الأسبانى مستمداً مناهله من هذه الجذور الأوروبية الأصيلة .

ويعتبر موريللو (واسمه الكامل : بارتولومى استيبان موريللو) من أشهر الفنانين الأسبان الذين عرفوا فى التاريخ ، وقد تفوق بصفة خاصة فى رسم الأطفال المشردين وحياة الفلاحين والطبقات الكادحة الفقيرة .. ولا يجب أن نحكم على لوحاته أو أن نقيمها بنظرتنا وحياتنا الحالية ، ولكننا إذا عدنا إلى القرن السابع عشر لوجدنا أن هذه النزعة فى معالجة موضوعاته ، ولجوءه إلى رسم الطبقات الكادحة تمثل اتجاها جديداً وظاهرة فريدة فى عصره .

** ولد موريللو فى مدينة سيفيل Seville فى أول يناير ١٦١٨ ومات بها فى الثالث من يناير ١٦٨٢ . ولم يغادر مدينته هذه إلا فيما بين عامى ١٦٤٥ ، ١٦٥٠ حيث أقام بمدريد فى تلك الفترة . وكانت اهتماماته الأساسية هى اللوحات الدينية للكاتدرائيات الأسبانية . وقد رسم أولى هذه المجموعات الدينية فى عامى ١٦٤٥ و ١٦٤٦ ، وكانت مؤلفة من إحدى عشرة لوحة ، صارت منطلقاً لشهرته كفنان مرموق .. وقد تأثر بكثير من الفنانين الأوروبيين ولا سيما بفنانى بلاد الشمال مثل (فان ديك) و (روبنز) ، ومن الطبيعى أن يتأثر فى بدء حياته بالفنانين الكبار من مواطنيه من أمثال (زورباران وريبيرا) ، كما شغف كذلك بروائع عصر النهضة الذهبى الإيطالى فى القرن السادس عشر .. ومن كل هذه المناهل والأساليب .. استطاع أن يخرج على عالم الإبداع الراق بأسلوبه المميز .. ولذلك رأى معظم مؤرخى الفن أن النهج الفنى لموريللو ذو ملامح أوروبية أكثر منه إسبانى . وظل فناننا يوالى روائعه عاماً بعد عام ..

وفى سنة ١٦٦٠ أسس أكاديمية الفنون فى مدينته سيفيل وانتخب مديراً لها ، وخرج على يديه المئات من شباب الفن الأسبانى والأوروبى الذين قصدوا تلك المدينة الصغيرة الوادعة ليتتلمذوا على يد موريللو العظيم . وفى تلك السنوات ، توالت إبداعات الفنان الشهير . ومنها هذه اللوحة التى يراها القارىء على الصفحة المقابلة والتى عرفت باسم : بائعة الفاكهة وقد رسمها موريللو فيما بين ١٦٧٠ و ١٦٧٥ .

وقد تناولها الباحثون بالشرح والتحليل بما لا يتسع له مجالنا المحدود .. فلنتأمل إسمال البائعة الصغيرة وانهماكها فى عد نقودها فى كفها باهتمام وبراءة ومسئولية .. ولنتأمل نظرة شقيقها الأصغر وبسمته المرحة اللامبالية .. أما الخلفية الداكنة فقد سلطت التركيز على التعبير السيكلوجى فى قسمات الوجه وأظهرت الفاكهة المبعثرة أمامهما بتناغم ضوئى وتوافق لونى معجز .. إنه موريللو .. أحد القمم الشامخة فى تاريخ الابداع !

أما اللوحات الأخرى وهى التى تعالج مشاكل قاع المدينة والطبقات الدنيا فهى علامة مميزة لعبقرية الفنان .

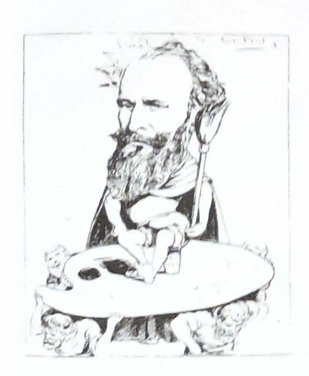


البائعة الصغيرة .

مانييه .. وإنطلاقة التأثيرية

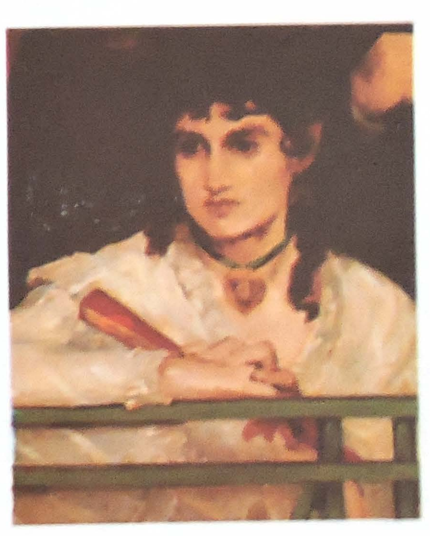
• يعتبر (مانيه) بحق رائداً لانطلاقة الفن الحديث .. والرواد دائماً هم أصحاب رسالة .. يجابهون من أجلها العناء بقدر ما يستحقون من فضل وتمجيد .

• نشأ في باريس من أسرة تنتمي إلى البورجوازية المستنيرة بكل ثقافاتها المرهفة وارتباطها الوثيق بجماليات الفنون ، وفي الفترة ما بين عامي ١٨٣٢ ، ١٨٨٣ تلك الحقبة التي عاشها إدوار مانيه من القرن التاسع عشر ، جرت أحداث خطيرة ، ربما كانت أخطر أحداث التاريخ الفرنسي كله : الاكتشافات الهائلة في العلوم وتطور الصناعة والأفكار الديمقراطية ، كما اندلعت الحرب السبعينية الرهيبة وما أحدثته من هزة عنيفة في فرنسا والعالم أجمع . وكان مانيه يتفاعل مع مسيرة الحياة بوجهيها المتناقضين ، النور الحضاري والأفكار المستقبلية ، وكذلك الحرب والكوارث التي داهمت الحياة الفرنسية المترفة ، هذا ، بالإضافة إلى الشكل لفنه كحدث جديد لم يألفه الناس من قبل !

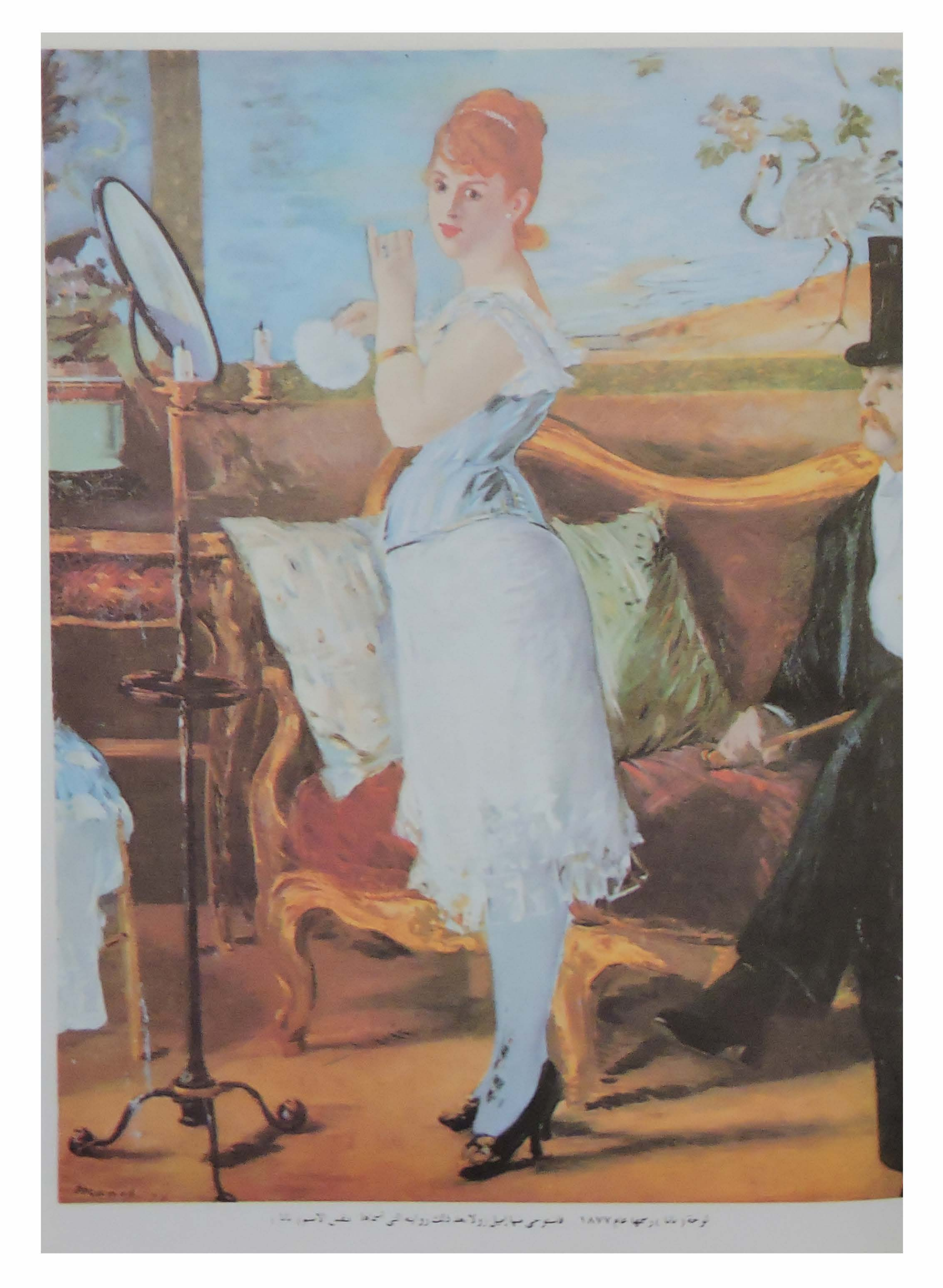




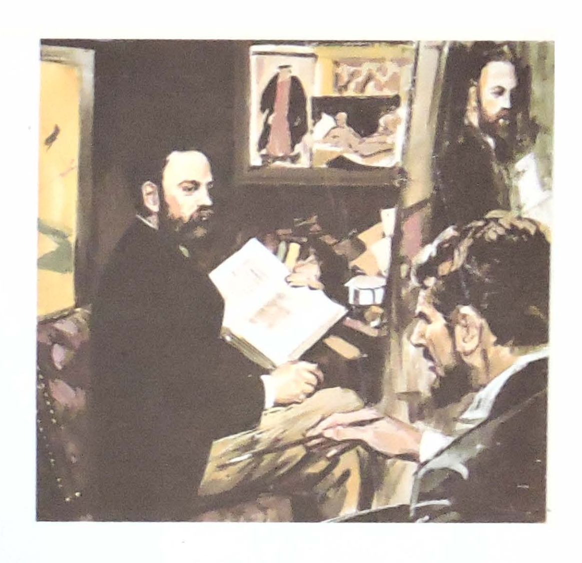
صورة إدوار مانيه في رسمين : الأولى على غلاف مجلة فنية متخصصة كانت تصدر في فرنسا آنذاك ، والثانية رسمها له صديقه الفنان ديجا



إحدى لوحات مانيه (في الشرفة) .. رسمها عام ١٨٦٨



لوحة «نانا» رسمها عام ١٨٧٧ فاستوحى منها إميل زولا بعد ذلك روايته التي تحمل نفس الاسم «نانا»



رسم توضيحي معاصر يوضح الفنان مانية وهو
يرسم لوحته الشهيرة لإميل زولا .. وهي
التي تراها على الصفحة المقابلة .

● كان مانيه مثالا لشباب القرن التاسع عشر الهائمين بالتأنق والرفاهية والحرية .. ولكنه هجر كل تلك المظاهر وانضم إلى مجموعة (مقهى جيربوا) ملتقى الفنانين والأدباء الذين سعدوا بالفقر من أجل الحرية ، وكان شعارهم : لنبق نبلاء ولنسعد بفقرنا ! لقد امتلكوا العالم بشاعريتهم وأطلقوا ملكاتهم العبقرية متحررة من قيود المادة ، فصاروا قادة النهضة الفنية والأدبية التي أرست دعائمها في النصف الثاني من القرن الماضي !

● وكما يلقى المجددون دائماً ، فقد اضطهد مانيه من عامة معاصريه ورفض الأكاديميون أعماله ومنعوه من عرضها في المعارض الرسمية .. ويقف الأديب والمفكر الشهير إميل زولا بجانب صديقه مانيه ، ويطلق عبارته الشهيرة : تسخرون اليوم من مانيه ولكن أبناءنا سيجتمعون بزهو وإعجاب حول لوحاته ! ويصبح الفنان زعيماً لجماعته المجددة ، تلك التي أطلق على أعضائها بعد ذلك : التأثيريون .

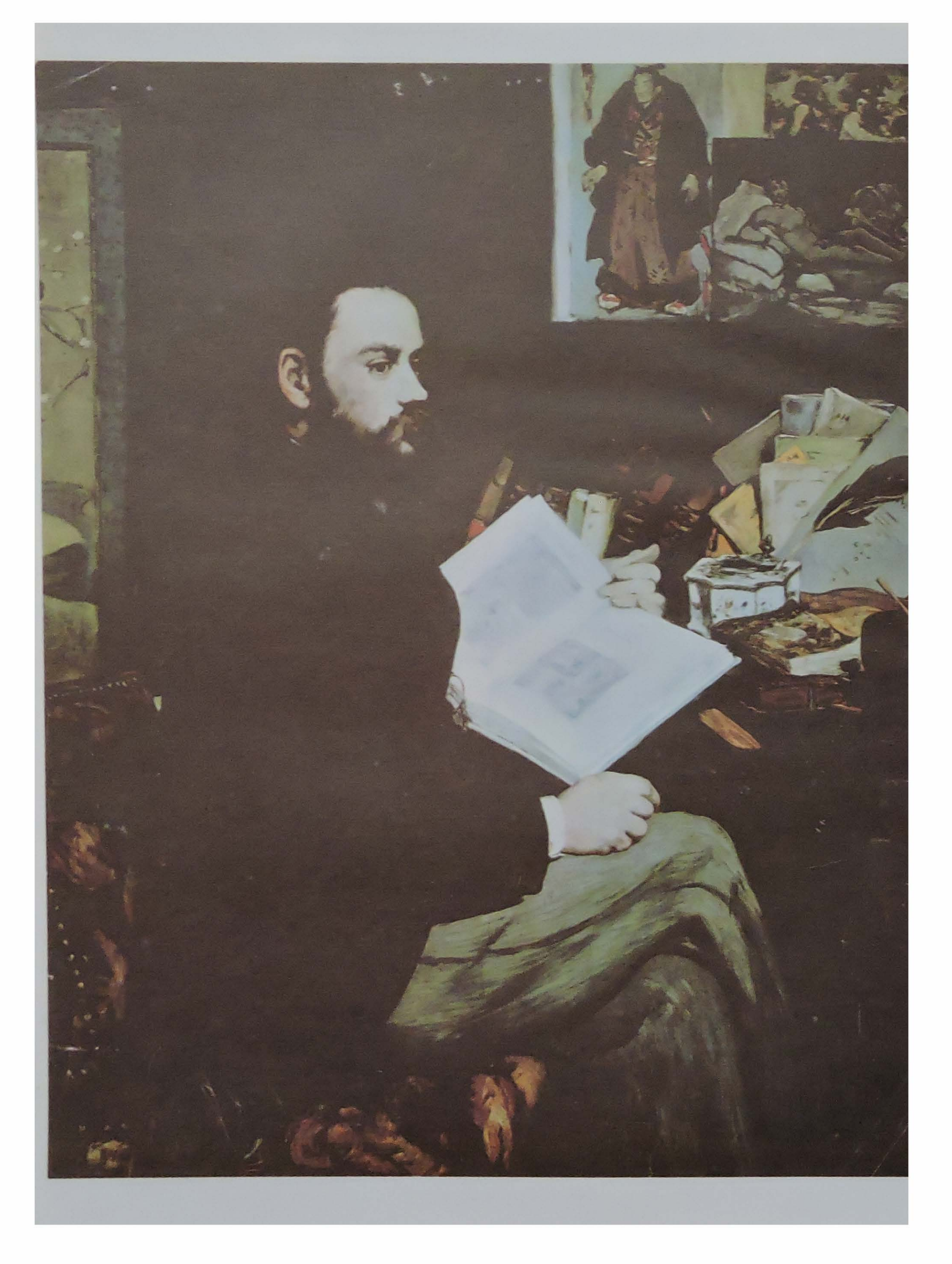
وفي المعرض الدولي عام ١٨٦٧ ، ترفض أعماله كذلك ، ويقف إميل زولا بجانبه ويقيم له جناحاً لعرض أعماله في مواجهة المعرض الدولي .. ويطلق شعاراً جديداً في المنتديات وتردده الصحافة الفرنسية آنذاك : إن مانيه قد تحدد مكانه في متحف اللوفر ! وتتوطد العلاقة بين زولا ومانيه ويستلهم الأديب رواياته من لوحات صديقه الفنان ، كما فعل في لوحة (نانا) تلك الفاتنة التي رسمها مانيه عام ١٨٧٧ ، وقد أوحت لإميل زولا اسم روايته الشهيرة .

● من تلك العلاقة الرائعة بين زعيم المجددين مانيه والأديب الأشهر إميل زولا ، واعترافاً من الفنان بفضل صديقه ومواقفه بجانبه دائماً ، كانت هذه اللوحة الرائعة ، وقد وضع مانيه في خلفيتها كثيراً من الأجواء التي طالما استهوت الصديقين وتلاقيا على الإعجاب بها : ملامح من الفن الياباني ، لوحات لفلاسكويز ، إحدى لوحات مانيه التي دافع عنها زولا بحرارة ، مجموعة الكتب التي طالما اشتركا في مطالعتها ومناقشة مضامينها ..

● ودهم المرض الفنان المرهف ، وتحت وطأة الصراع ومرارة النكران يختتم حياته سنة ١٨٨٣ . وقبل موته كتب لأحد نقاده الذين أسرفوا في مهاجمته والتنكر لفنه يقول :

« كنت أود أن تتاح لي فرصة قراءة مقالك الرائع الذي ستختصني به عندما أموت » !

وصدقت نبوءة زولا عن مكان مانيه في متحف اللوفر .. فبعد عام من وفاته ، أشاد الجميع بفنه وعبقريته الفذة .. وافتتح اللوفر أبوابه بأمر من قادة فرنسا ، لتحتل أعمال إدوار مانيه قاعات بأكملها من هذا المتحف العريق .



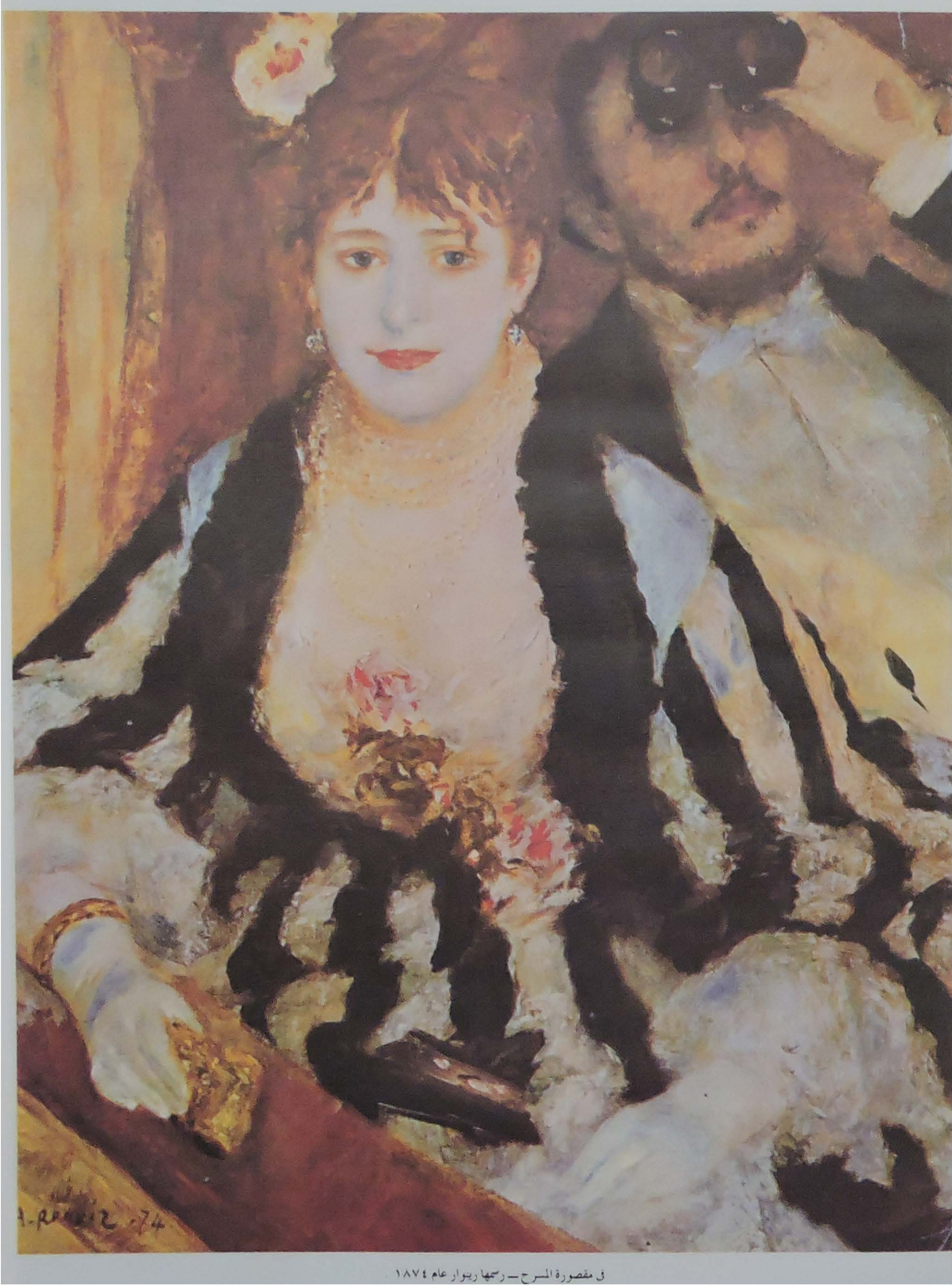
ينابيع البهجة



بير أوجست رينوار (١٨٤١ـ ١٩١٩) وهو يرسم إحدى لوحاته فى حديقة بيته فى : كانى Cagnes) ـ صورة فوتغرافية التقطت له فى أواخر أيامه

رواد (التأثيرية) ، هم الذين فرضوا مذهبهم الفنى على الذوق العالمى . وربما وجدنا فى هذا التعبير شيئا من الغرابة ، اذ أن التذوق هو حسّ ذاتى يعتمل فى وجدان وبصيرة المتذوق ولا يمكن أن يفرض عليه .

ولكن الطبيعة البشرية ــ عادة ــ ترفض الحدث الجديد غير المألوف أو تنظر إليه بتوجس ، وقد يشتط البعض فيحاربونه .. ويظل الصراع محتدما إلى أن تألف الحواس هذا (الجديد) فيصبح عاديا يعيش مع الناس فى ألفة ووفاق ، وما أن تمضى فترة زمنية حتى يتحول بعدها ذلك (الحدث) ــ الذى كان مستغربا ثم أصبح عاديا إلى تراث نعتز به لأنه يمثل حلقة تاريخية فى مسيرة الفكر الإنسانى المتجدد على الدوام !



في مقصورة المسرح ـ رسمها رينوار عام ١٨٧٤

وهذا ما حدث لكثير من مدارس الفن العالمية ، ومنها المدرسة التأثيرية .

ولكن الجدير بالتنويه عن هذه المدرسة أنها صاحبت ثورة فكرية شاملة فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وفجرت فى قرائح المبدعين طاقات خلاقة مازالت إشعاعا تسطع على الفن والثقافة حتى يومنا هذا ، كما اشترك فيها العديد من أساطين الفكر ، يوم أن كانت العاصمة الفرنسية وأحياؤها الشهيرة مثل (مونمارتر) و (البيجال) وغيرهما ، تزخر بصنوف الإبداع العالمى ، وتحتضن الأفكار الثائرة المتطلعة إلى البحث والتجديد .

وكانت المنتديات الفكرية والصالونات الفنية المنتشرة فى كل مكان فى باريس تمثل طابع العصر للمجتمع الفرنسى آنذاك . وتحولت إلى خلايا إبداعية يجتمع حولها أعلام الفن ورواد الشعر والأدب والمسرح والسياسة والصحافة ، ولا غرو أن نقرأ اليوم عن تاريخ تلك الفترة الرائعة أسماء الفنانين مانيه ورينوار وديجا وسيزان .. مختلطة مع أسماء إميل زولا وديران ومجلة (لو شاريغارى)ومقهى(جيربوا) و (أثينا الجديدة) ..!

لقد امتلك هؤلاء الصفوة عالمهم امتلاكا شاعريا، واختاروا بساطة العيش والكفاح ، وعانوا من الاضطهاد وتعرض بعضهم للفاقة والتشرد ، ورفعوا شعارهم الخالد : لنبق نبلاء ولنسعد بفقرنا !

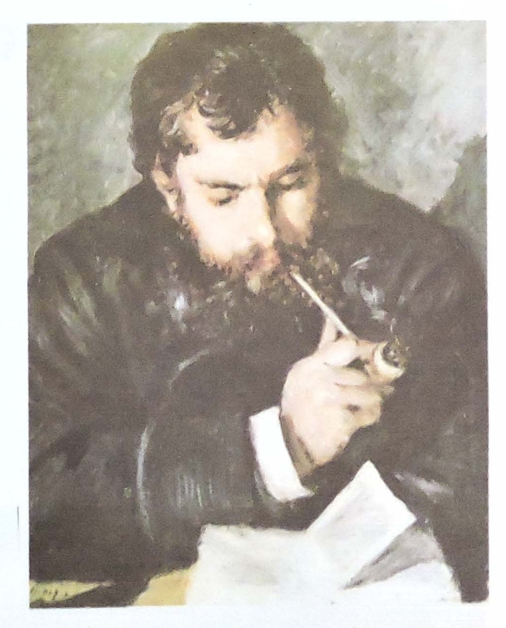
وعاش فناننا رينوار هذه الفترة التحولية العظيمة .. فترة ظهور تلك الحقائق التشكيلية الجديدة التى تبلورت فى اتجاهين أساسيين : التعبير بالصورة والتعبير بالرمز .

وقد صاحب هذين المذهبين ظهور فنانين من ذوى الآراء والأساليب الخاصة : فان جوخ ، ويرى ضرورة المزج بين الرمز والواقع ، وجوجان ، يدعو إلى الأسلوب التركيبى الذى يتخطى ظواهر الأشياء ، وسيزان ، يجنح إلى الأسلوب البنائى .. وغيرهم .. وغيرهم .

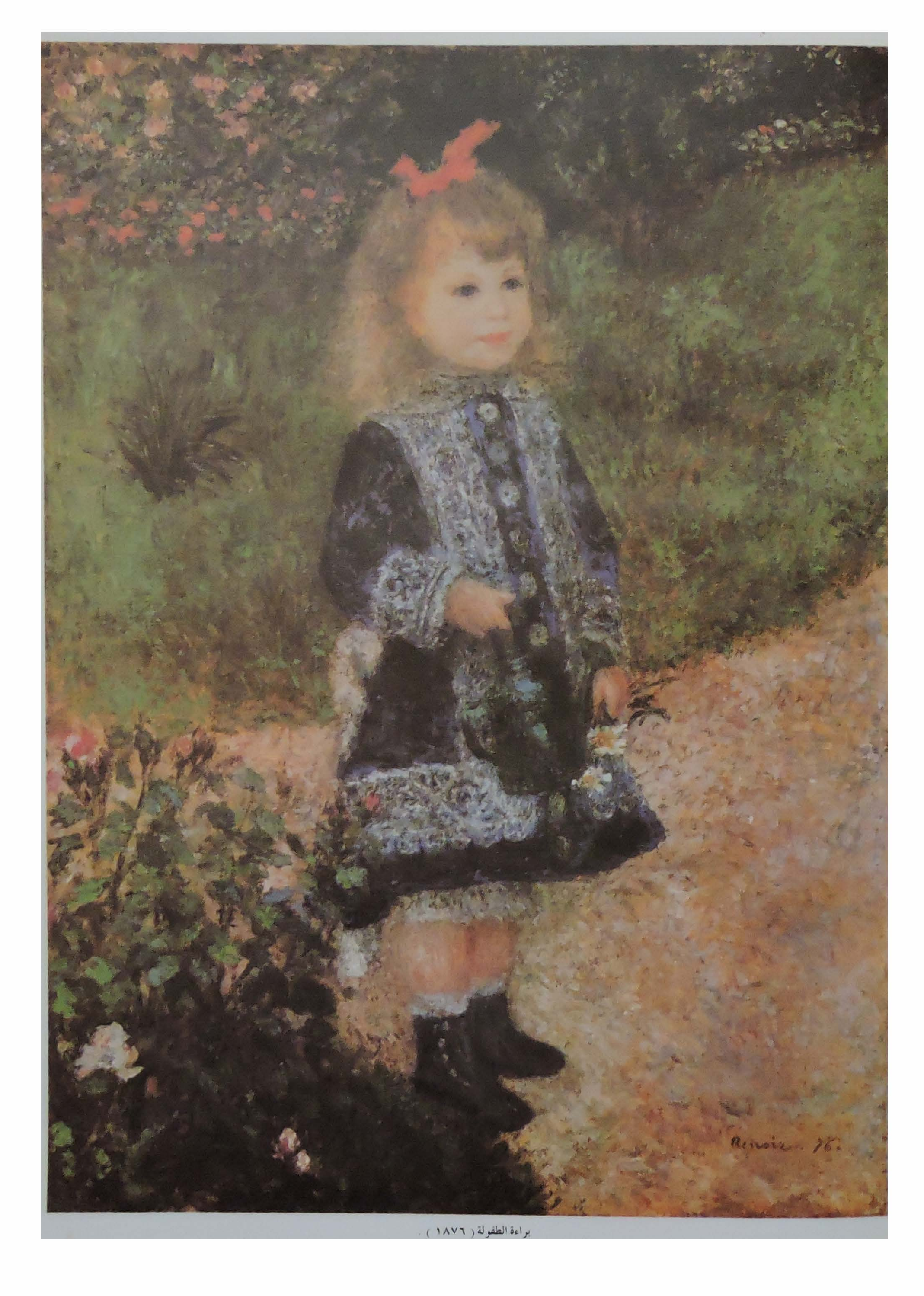
أما رينوار فلم يكن صاحب نظريات مستحدثة ، فالفن فى نظره صناعة بارعة قبل كل شىء . ولذلك وجد فى التأثيرية ما يتفق مع هواه ، حيث يستطيع أن يجسد فى فنه صورة حسية وضاءة النور والحياة ، ليس فيها إيماءات



الرقص .



هكذا رسم رينوار صديقه كلود مونيه عام ١٨٧٢



براءة الطفولة (١٨٧٦).



من المناظر الطبيعة القليلة التى رسمها رينوار (١٨٨٢)

الرومانسية الأدبية ولا جفاف الذهنية الواقعية ! فهو يأخذ برأى الشاعر (مالارميه) بأن التصوير تصنعه الأشكال والألوان كما تصنع الكلمات قصائد الشعر .

وكان رينوار شديد الإعجاب بالإغريق القدماء إذ جعلوا الأرض زاخرة بالحياة الجميلة ، ومن أجل ذلك .. أراد فناننا أن يعيد إلى الأرض ـــ فى لوحاته ـــ رونقها المفقود من خلال المرأة النابضة بالخصوبة وحس الحياة .. دون أن تهوى إلى الابتذال .

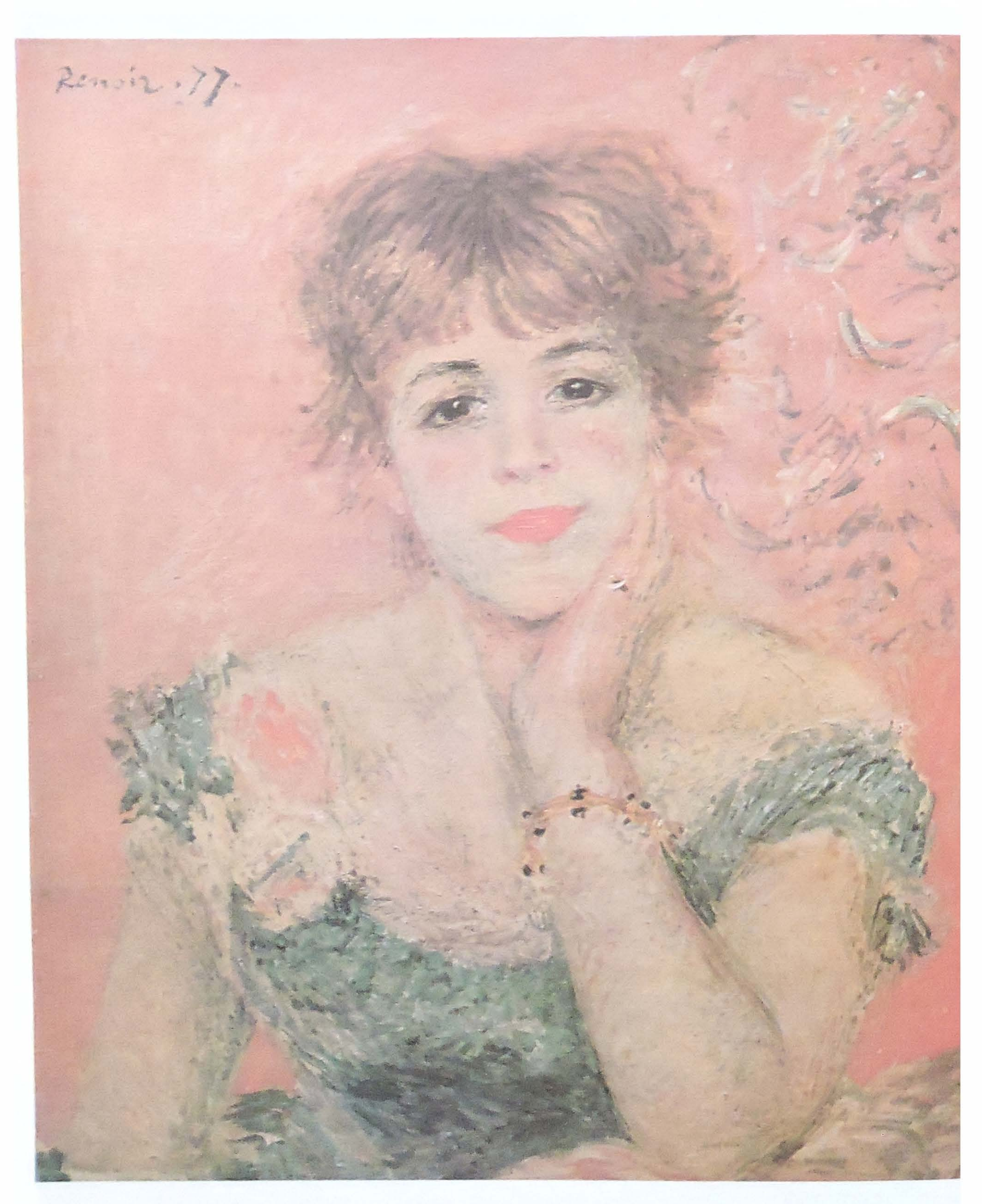
وكما تغنى بجمال المرأة ، تغنى كذلك فى أعماله بالثمار اليانعة والزهور المتفتحة ومشاهد الطفولة البريئة .

وأياً كان الموضوع الذى صوره ، فإن رينوار كان يؤمن بأن الصورة يجب أن تكون شيئا ساراً ومبهجاً .

وإذا كانت نظرة التأثيريين إلى الأشكال هى نفس نظرة رينوار من حيث المعالجة اللونية ، إلا أن الاختلاف بينهما يكمن فى أنه لم يلجأ إلى رسم المناظر الطبيعية التى كانت المنهج الأساسى لفنانى التأثيرية ، ولكنه أوقف حياته وفنه لرسم الأشخاص (ولا سيما النساء الجميلات) فى معظم إبداعاته التى بلغت أكثر من خمسة آلاف لوحة تحتل الآن أروقة متاحف العالم .

كما نلحظ أن المرأة عند رينوار تتمتع بجمال هادىء ذى إيحاءات وجدانية سامية ، وبذلك استحق أن يقول عنه المؤرخون :

إنه أروع من تغنى بجمال المرأة وبراءة الطفولة وفجر ينابيع البهجة فى الحياة !



الآنسة جين سامارى ــ من أعمال الفنان عام ١٨٧٧ وهى من مقتنيات متحف القرن التاسع عشر للفن الحديث بموسكو

القارئة الحسناء

فى أعقاب عصر النهضة الإيطالى الذى أطلق عليه العصر الذهبى فى القرن السادس عشر ، انحدر الفن إلى الاهتمام بالرونق والزخرف فى القرن السابع عشر فيما يعرف بفن البهجية والباروك الذى غزا ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا ودول الشمال الأوروبى .. ولكنه عرف فى فرنسا فى القرن الثامن عشر باسم الركوكو ..

واستقطب البلاط الفرنسى خيرة الكفايات الفنية فى البلاد ، وتسابق الفنانون لإرضاء هذه النزعة الأرستقراطية المترفه ، وانغمسوا فى بريق الحياة الناعمة ، وجاءت فنونهم بريقاً زائفاً وزخرفاً متأنقاً يواكب حياة البذاخة التى أصبحت فنونهم مظهراً من مظاهرها فى التاريخ الفرنسى .. وظهر فنانون على جانب كبير من الكفاءة والموهبة الرائعة .. تسابقوا فى رسم فاتنات الطبقة الراقية والمناظر الرومانسية الحالمة .. وتخصص فريق منهم فى رسم متطلبات البلاط الفرنسى ونسائه الشهيرات من أمثال (مدام دى بمبادور) و (مارى أنطوانيت) وغيرهما من الأسماء التى يحفل بها التاريخ .. وقد لعبن الدور الأساسى فى مجرى الأحداث والتحولات الأساسية المصيرية .. ولذلك أطلق على فن هذه الفترة : فن البلاط . وتألقت أسماء العباقرة العظام من أمثال : فراجونار وبوشيه وواتو وغيرهم من الأساطين الكبار . ويعتبر فراجونار (واسمه الكامل جان أونريه فراجونار) أحد العمالقة العالميين الذين أثروا الفن والفكر الرومانسى بشكل جعل من فنه نهجاً شعبياً للحياة فى عصره .

وقد تتلمذ فراجونار على يد فنان الروكوكو الشهير فرانسوا بوشيه الذى اشتهرت إبداعاته لمدام دى بمبادور ، راعية الفنانين فى عهد لويس الخامس عشر .. وقد عمر فراجونار حتى بلغ الرابعة والسبعين من عمره (١٧٣٢ — ١٨٠٦) ، وبذلك شهد فترة التحولات السياسية الرهيبة من تاريخ فرنسا ، واكتوى بنار الثورة الفرنسية التى عصفت بفنه ودمرت مكانته وصادرت لوحاته وممتلكاته حتى مات معدماً عام ١٨٠٦ . وقد نصبت الثورة الفرنسية الفنان الشهير (دافيد) قائداً للحركة الفنية ، فجعل من نفسه دكتاتوراً وحاكماً بأمره فى كل ما يتعلق بشئون الفن فى فرنسا ، وقضى قضاء مبرماً مروعاً على فن البلاط ، بعد أن قضت الثورة على البلاط نفسه .. وجعل الفنانين يحسون بأن المقصلة فى انتظار رقابهم مالم يهتفوا بسقوط الروكوكو وانتهاء فن الرفاهية إلى الأبد ! وهكذا فعلوا ! وتحولوا إلى نزعة جديدة تتفق ومجريات الأمور آنذاك !

أما لوحتنا التى يراها قراؤنا على الصفحة المقابلة ، فهى لإحدى فتيات المجتمع التى رسمها فراجونار عام ١٧٧٦ وأسماها : القارئة الحسناء . وقد تحول الفنان منذ عام ١٧٧٠ إلى رسم الصور الشخصية ولا سيما فتيات العائلات الأرستقراطية فى باريس وفاتنات المسرح والمشاهير والنبلاء ، ويرى المحللون ونقاد الفن فى هذه اللوحة كثيرا من خصائص الفن الفرنسى فى القرن الثامن عشر حيث تتلألأ الألوان البراقة التى تبعث فينا البهجة والإحساس بنعومة وترف ذلك العصر ، بالرغم من الانهماك الجاد الذى يبدو على وجه هذه الحسناء المستغرقة فى قراءة كتابها الصغير .

ومن خلال التأنق البادى على ملابسها وشعرها ، ومن حركة أصابعها الدقيقة الرشيقة .. نستشعر جو الرفاهية وسمات الترف .. تلك السمات التى تميز بها فن (جان أونوريه فراجونار) .. سواء رأيناه فى مناظره الطبيعية الشاعرية المألوفة ، أو فى لوحاته الميثولوجية الأسطورية ، أو فى رسم (موديلاته) من ذوات الجمال التى يضفى عليها الفنان فخامة وتأنقاً يحكى قصة عصره السابح فى أطياف الشاعرية .



القارئة الحسناء ـــ لفنان الروكوكو الشهير فراجونار .

لوتريك وثورة البوهيمية





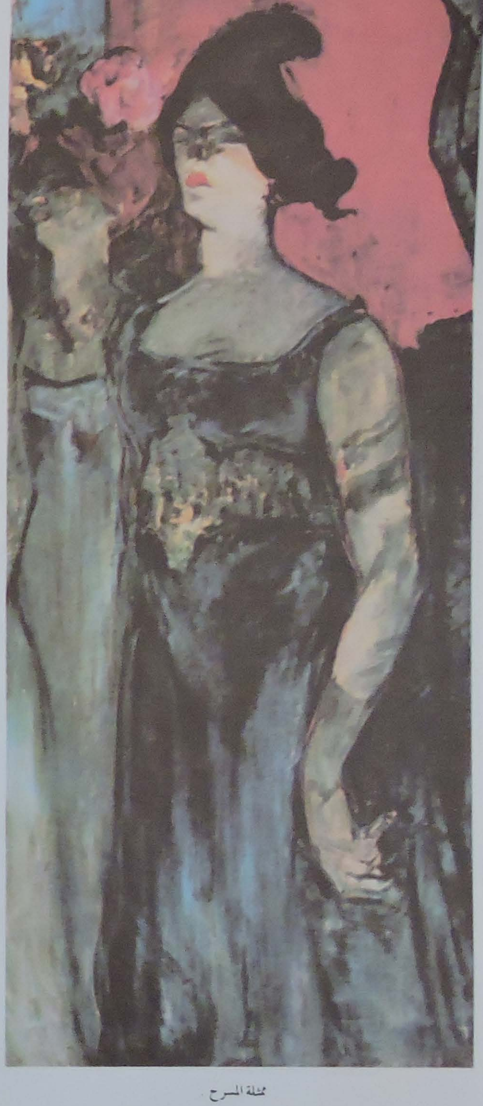

مجموعة من الصور الفوتوغرافية النادرة لتولوز لوتريك (فى الجانبين) ووالديه (فى الوسط)

قادت التأثيرية التى وصلت إلى ذروتها فى السبعينات من القرن الماضى إلى تطورات مذهلة تمثلت فى ظهور الأنماط ذات الطابع الخاص بالفنان ذاته .. ولذلك نطلق عليها فى تاريخ الفن « ما بعد التأثيرية » وتعددت الأسماء والمسميات : التنقيطية — التعبيرية — البوهيمية — المستقبلية — الوحشية .. وغيرها .. وفناننا هو تولوز لوتريك ، أحد البوهيميين الذين نفذوا إلى أعماق الحياة الباريسية بطبقاتها الدنيا وكشف عن أسرار النفس فى آلامها وآثامها وأفراحها وأتراحها ومساخرها ، وحملت لوحاته أكبر نصيب من الحياة ولم تنطو .. على نفس القدر من الفن بمقاييسه المتعارفة .

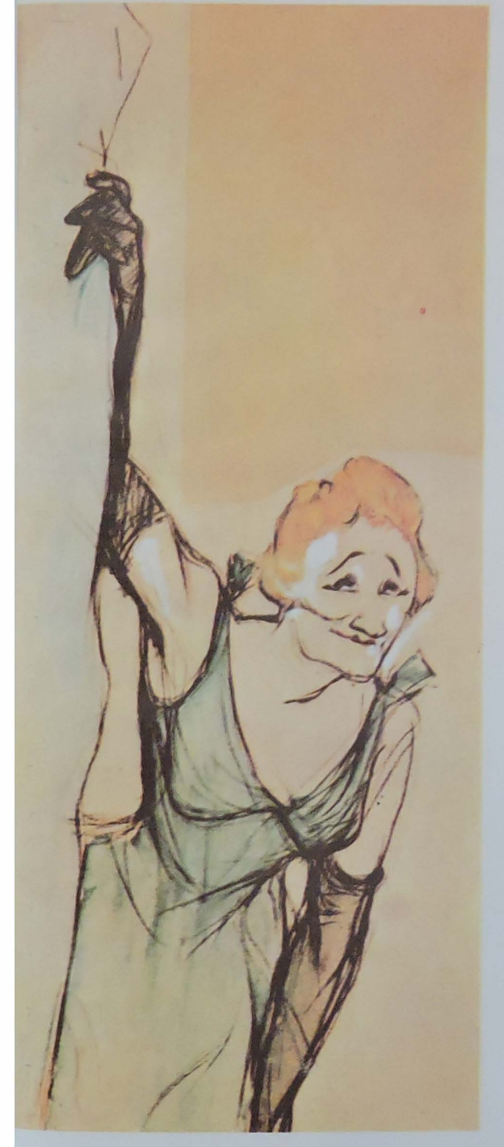
●● كان شخصية مثيرة ، يمزق أقنعة البشر .. ويرسم الإنسان على سجيته دون زيف أو افتعال ، تنقض خطوطه كالصواعق .. وينثر ألوانه على لوحاته فى عصبية لاذعة المذاق .. فى عام ١٨٩٣ أقام (تولوز لوتريك) معرضاً خاصاً لأعماله .. وانتقى من مئات اللوحات التى رسمها فى سرعة جنونية ، ثلاثين لوحة تمثل — فى معظمها — حياة



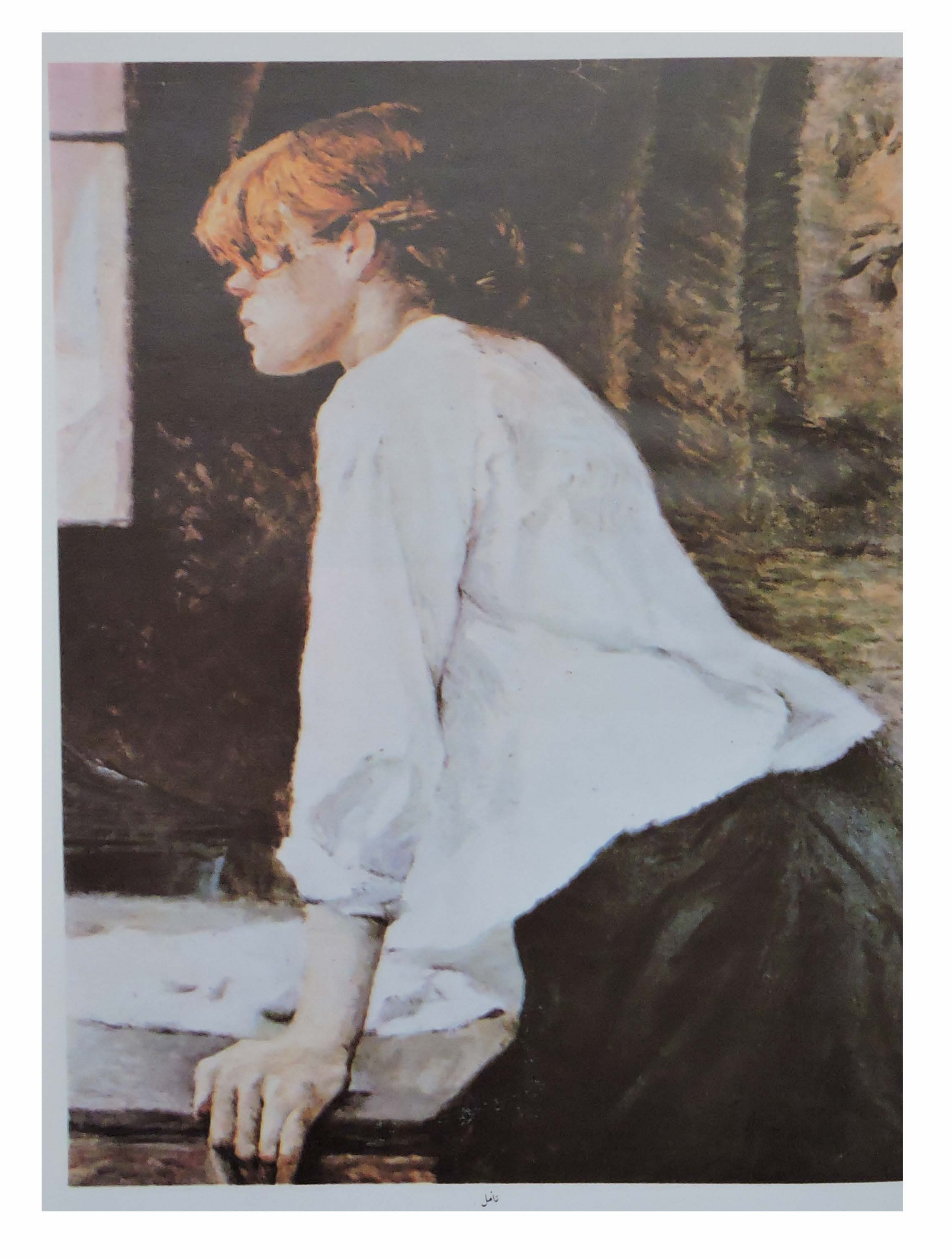
الدخول إلى الملهى



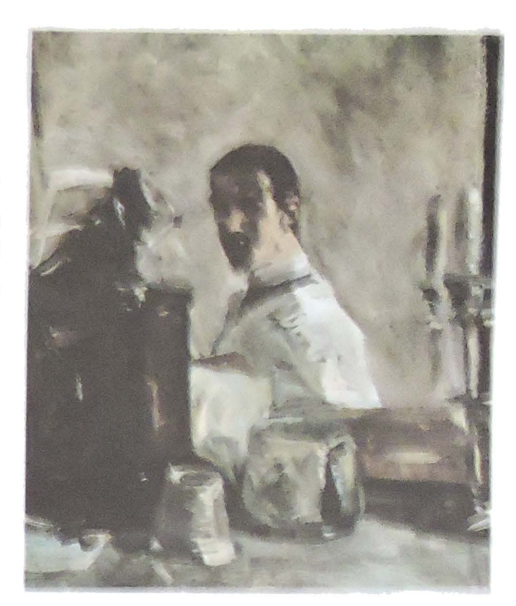
ممثلة المسرح .



الممثلة العجوز .



تأمل



تولوز لوتريك (١٨٦٤ ــ ١٩٠١) كما رسم نفسه

الناس وعوالم البيوت المغلقة البائسة التى كانت تزخر بها باريس .. وقوبل المعرض بالحماس والترحيب ، وكتب أشهر النقاد الفرنسيين فى مجلة الفنون الجميلة آنذاك :

« إننا منذ زمن طويل لم نلتق بفنان له من الموهبة الفذة ما لدى فناننا تولوز لوتريك وربما كان سر أستاذيته أنه يجمع على وفاق بين ملكتين متكاملتين ، هما نفاذ التحليل النفسى إلى أعماق شخصياته ، وسيطرته التامة على وسائل التعبير » .

كان تولوز .. يعيش فى بوهيمية وتشرد وفوضوية غريبة .. أفنى حياته القصيرة كمن يعتصرها اعتصارا بين الإنتاج المتدفق وحياة الفوضى الغريبة فى حى (مونمارتر) الأسطورى !

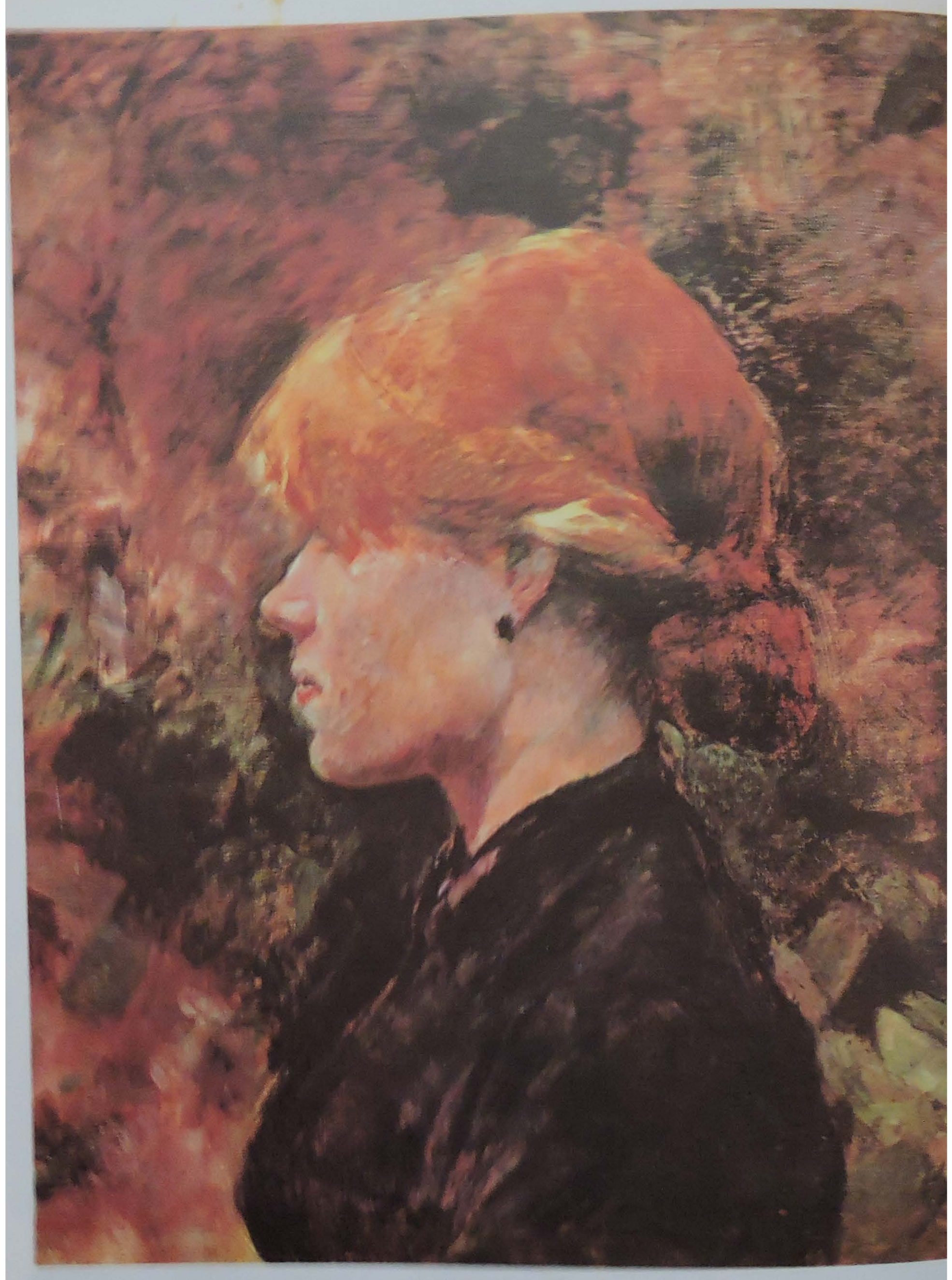
كان كثير التردد على هذا الحى ولا يسمع بمغنٍ جديد فيه حتى يهرع إليه محاطاً بحاشيته ، ووجدنا أنه فى عام ١٨٨٩ .. عندما كانت باريس تحتفل بافتتاح برج إيفل ، كانت مونمارتر (حى الفن فى العاصمة الفرنسية) تحتفل بافتتاح ملهى (المولان روج) ومن يومها .. لم يبرحه الفنان ، فقد وجد فيه نماذجه التى شغف بها وأوقف فنه على تسجيلها فى لوحاته . ولم يدخر سكان الحى وسعاً فى إغرائه وتشجيعه بشتى الوسائل ليطيب له المقام بين أروقته وفى دروبه المليئة بالنماذج الإنسانية .. وبفضل لوحاته ومعارضه عن ملهماته الشهيرات من فتيات حى مونمارتر ، صارت بعض أماكن هذا الحى تملأ أسماع أوروبا كلها .. بل لقد سجل فى التاريخ كعلامة بارزة فى إبداعات الفنان العالمى الكبير .

وربما كانت حياة الصعلكة هذه شيئاً منطقياً مع طبقة الفنانين البائسين من الفقراء ..

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لفناننا .. إذ أن أباه هو الكونت ألفونس دى تولوز لوتريك ، وأمه الكونتيسه آديل من أعرق الأسرات الأرستقراطية .. وكان هو ابنهما الوحيد المدلل ولكنه نشأ قزماً ضعيف البنية إلى حد الهزال .. وحدث وهو فى سن الثالثة عشرة أن زلت قدمه فسقط على الأرض وتهشمت عظمة فخذه اليسرى .. وبعد نحو عام وقع ــ من فرط هزاله ــ مرة أخرى فتهشمت عظام فخذه اليمنى .. وبعد علاج طويل يئس الأطباء من شفائه ، فظل لوتريك قعيد البيت منزويا عن أعين الناس . ولكن .. سرعان ما تبدل إلى إنسان جديد ثار على انطوائيته وتحول من النقيض إلى النقيض .. انكب على الرسم والقراءة وتعلم اللغات .. وأحب السفر والترحال .. بل وتولد فيه حب الزعامة والسيطرة والتمرد على الواقع والسخرية من كل شىء حتى من نفسه !

ومن هذا المنطلق .. ولاحساسه بأن حياته قصيرة ، نراه وقد استهلكها بسرعة جنونية .. وصارت مغامراته على كل لسان .. فلنتأمل بعض لوحاته الصاخبة .

ونلاحظ فى لوحة (ذات الشعر الأحمر) أسلوبا يميل إلى التأثيرية .. خلافاً عما عرف به تولوز لوتريك فى أعماله الفطورية الساخرة .. ولكن الفنان قد جمع بين الأسلوبين بثقة وأستاذية هو جدير بها .. كأحد شوامخ الفن فى التاريخ .



ديجا .. بين الشعر والفلسفة ورقصات الباليه



ديجا (صورة رسمها لنفسه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره) .

لم ينعم (ديجا) بالاستقرار فى يوم من الأيام .. بل إذا أردنا الدقة فى التعبير ! لم يكن يحب الاستقرار ، كان يستمتع بحياته المفعمة بالحيرة والقلق والمعاناة ! عندما تجاوز الأربعين من عمره كان يشكو دائماً من ضعف بصره (ومن المصادفات أن ذلك قد حدث لعبقرى آخر هو مايكل آنجلو ، وكان يحيا مثله فى عزلة موحشة وقلق وتشاؤم .. وكلاهما توقع أن يموت فى سن مبكرة ، ولكنهما عاشا حياة طويلة مثمرة .. وكلاهما هرب — فى عزلته — إلى الشعر والأدب والفلسفة) !

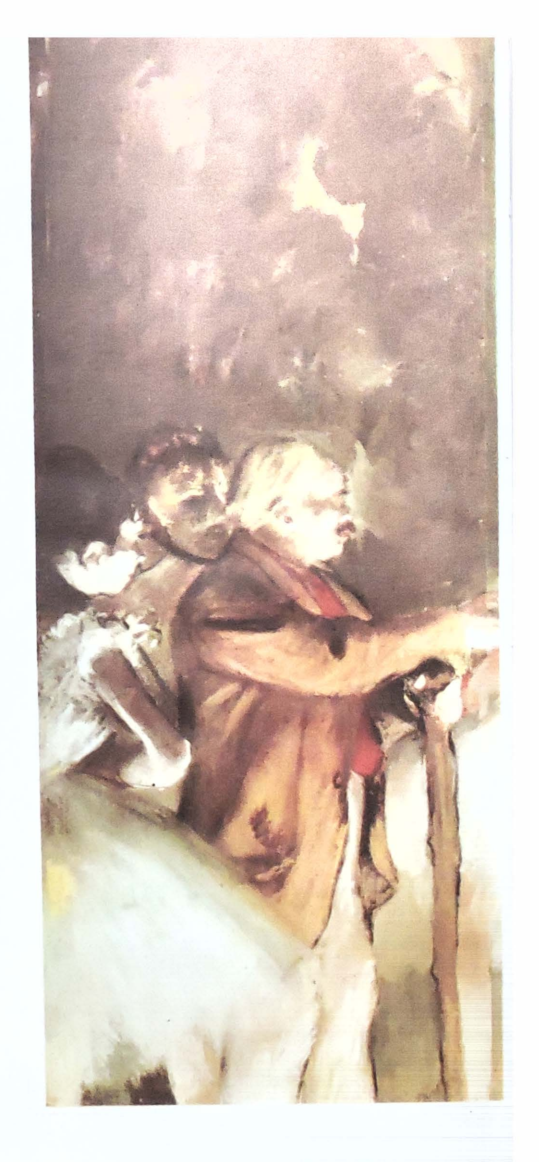
اسمه الكامل : هيلير جيرمان إدجار ديجا ، ولد فى باريس فى شارع سان جورج عام ١٨٣٤ ، وعمر حتى شهد





الحرب العالمية الأولى إلى أن مات سنة ١٩١٧ . أى أنه شهد الرومانسية فى أواخر أيامها ، وكان من أقطاب التأثيرية .. كما كان علماً بارزاً من أعلام « العصر الجميل » وهو عصر مترف مر على الحياة الأوروبية عامة — وفرنسا بخاصة — كتحليق حالم فى سماء الإبداع والمتعة والبذاخة ، واستمر منذ بداية الثلث الأخير من القرن الماضى وحتى وقوع الحرب العالمية الأولى كشبح رهيب حطم كل شىء وألقى بظلاله الكئيبة على الحياة الأوروبية كلها !

وقد تميز (العصر الجميل) أو (عصر الحب والجمال) — كما يطلق عليه المؤرخون — بتألق ربات الجمال ،



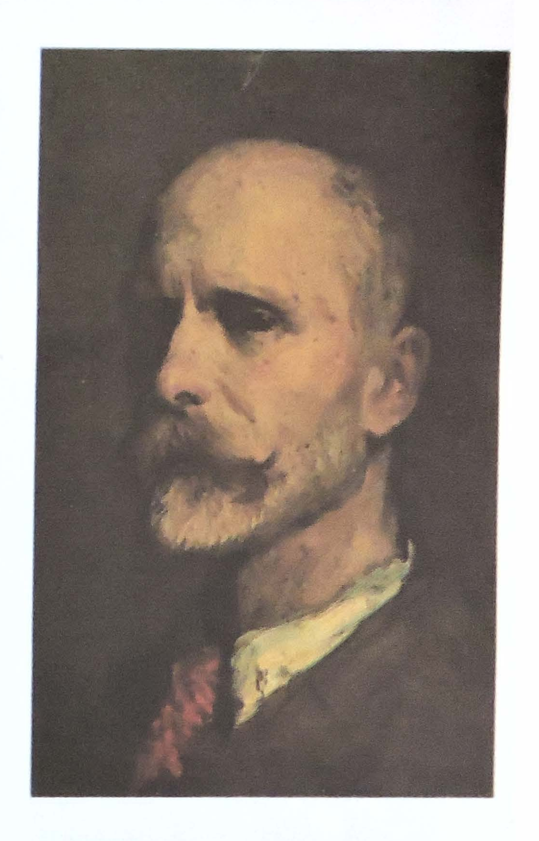
وصاحبات الصالونات ، ونجمات المسارح والراقصات .. وظهر فيه المسرحان الشهيران (مولان روج) و (كازينو دى بارى) ، كما استحدثت مدن الشواطىء والاستشفاء والمياه المعدنية ، ونوادى القمار فى (مونت كارلـو) وغيرهـا .. واشتهرت أحيـاء اللهـو فى (مونمارتـر) و (مونبارناس) وملاهى حى (سوهو) الأسطورية !

من كل هذه المظاهر الغارقة فى الترف والإسراف واللهو والفكر والفن .. ظهرت طبقة الموهوبين الأفذاذ من .. الموسيقيين والأدباء والشعراء والفنانين فى شتى الميادين .. لم ير التاريخ مثلهم من قبل مجتمعين فى عاصمة واحدة مثل باريس .

ووسط هذا الزحام الإبداعى .. تألق عباقرة الرسامين المبدعين . وأنشأوا مدارس فنية جديدة لم يعرف العالم أروع منها حتى اليوم ! ظهر « رينوار » و « سيزان » و « مونيه » وفناننا « ديجا » و « مانيه » و « تولوز لوتريك » و « فان جوخ » و « جوجان » وغيرهم من أقطاب المدارس التأثيرية وما بعدها مما تعمر به المتاحف العالمية شاهدة على تلك الطفرة الإبداعية الرائعة !

وقد نزع « ديجا » إلى حياة الليل وأضواء المسارح وراقصات البالية ، حتى نستطيع القول إنه قـد تخصص فيها .. شغف بالراقصات الرشيقات وهن يتدربن .. ثم وهن فى وقت راحتهن .. والنواحـى الإنسانيـة فى علاقـاتهن الخاصة .. وفى استعراضاتهن الجماهيرية .. وغير ذلك ! وكانت طريقته فى رسمهن جديدة فى منظورها وتكوينها ، فقد اختار الزوايا الغريبة ، حيث كان يرصدهـن مـن مقصورته المرتفعة فى دار الأوبرا ، ومن وراء الكواليس ومن حجرات الملابس ومن مواقف أخرى مبتكرة . وظل يرسم راقصات البالية حتى آخر يوم فى حياته رغم المرض ورغم ضعف بصره الشديد . وفى أيامه الأخيرة وصل به القلق والضجر إلى منتهاه .. فآثر التجوال لساعات طويلة كل يوم فى شوارع باريس بلا هدف حتى ينال منه التعب ، فيأوى إلى بيته وحيدا إلا من خادمه الوفى .. يتأمـل حجراتـه الموحشة وقد غطتها عشرات اللوحات من إبداعه وإبداع زملائه الفنانين الكبار .. ويحلو له أن يتصفح كتاباً بعينه لمؤلفه الشهير (جى دى موباسان) وقد كتب على صفحته الأولى إهداء للفنان الكبير مؤرخا بعام ١٨٨٨ : « إلى إدجار ديجا .. الذى رسم الحياة كما كنت أود أن أرسمها أنا » !

الأستاذية وانكار الذات في عالم الإبداع



سير جورج كلوزن (١٨٥٢ ــ ١٩٤٤) بريشته .

السير جورج كلوزن ، واحد من أشهر رسامي بريطانيا .. وربما لم نسمع عنه كثيراً بما يتفق مع موهبته الفذة في فن التصوير الحديث ، وربما كانت هذه أول مرة يكتب عن الفنان بالعربية وذلك لسببين : أولهما : أنه التزم بالسلوك والخلق الأكاديمي كأستاذ في أكبر معاهد الفنون الجميلة في بريطانيا وهو الرويال أكاديمي ، ولم يعش حياة الفنان البوهيمي المغامر جريا وراء الشهرة أو الجماعات المتمردة التي تقيم الدنيا وتقعدها باستحداث المذاهب وابتداع المدارس الغربية التي احتدمت معاركها في العصر الحديث .

وثانيهما : أنه بدأ حياته الفنية مع تألق المدرسة التأثرية في باريس ، بأقطابها ذوى الشهرة العارمة الذين استأثروا بالتألق .

فشغف بها وخصوصاً فيما يتعلق برسم المناظر الطبيعية تحت أضواء الشمس المتلألئة ، ولذلك كان تأثير الطابع الفرنسي على أسلوبه ومنهجه الفني أكبر من تأثير التيارات الإنجليزية التي نشأ بينها ، وبالتالي ، فلم يحظ بالشهرة التي حظي بها مجموعة التأثيريين الفرنسيين الذين قادوا حركة (التأثيرية) وما بعدها ، وكما نعلم ، فمنذ منتصف القرن

الماضى تمركزت حركات الفن الحديث ومدارسه فى باريس لتقود العالم خلفها حتى أوائل القرن العشريـن وكانت المجموعة الفرنسية هى محور الاهتمام دون غيرها من فنانى العالم .

● ولد جورج كلوزن Sir George Clausen فى لندن عام ١٨٥٢ ، وكان أبوه من أشهر من تخصصوا فى فن الديكور والتصميمات المعمارية فى العاصمة البريطانية . وكان طبيعيا أن ينشأ جورج فى مؤسسة والده متلمذا على يد أساتذة الديكور ليخلف أباه فى تخصصه .. ولكن ، ما إن ظهر نبوغه فى الرسم والتصوير الزيتى حتى نصحه الفنانون بأن يترك التصميمات والزخارف ويتدرب على الفن الأكاديمى ويجيد الرسم والتلوين ليصبح فناناً مرموقاً . وفى عام ١٨٧٣ حصل على إجازة دراسية لمدة عامين فى إحدى مـدارس الفنون الجميلة ببريطانيا ، وخلال دراسته كان يقوم بزيارات فنية لدول الشمال الأوروبى لكى يشاهد أعمال الكبار من أمثال روبنز ورمبرانت وفيرمير وغيرهم مـن العمالقـة ، وتبلورت موهبته ، فعرض أولى لوحاته فى المعرض السنوى للأكاديمية البريطانية عام ١٨٧٦ . وكانت هذه السنوات تشهد أكبر مظاهرة فنية فى تاريخ الإبداع الحديث متخذة من باريس منطلقا لها فى الثلث الآخير من القرن الماضى . وقد طبع المذهب التأثيرى بصماته على فنانى أوروبا كلهـا .. فأصبح كلوزن أحد أقطابه فى بريطانيا وأشتهر بلوحاته عن المناظر الطبيعية ذات الطابع التأثيرى الشهير .. وبلغ عشقه للمناظر الخلوية وجمال الريف أن ترك العاصمة ورحل مع عروسه واستقر فى بيت ريفى بإحدى القرى القريبة من (سانت ألبانز) ليمارس رسم الطبيعة بإحساس وحريـة ومعايشة كاملة .

وكان قد رحل فى أوائل عام ١٨٨٣ لعدة شهور إلى باريس ليتابع حركة التيارات الفنية الحديثة هناك ، فظهر هذا التأثير واضحا فى أعماله فى السنوات التالية .. ولكنه لم يجنح إلى التغيير المفاجىء فى أسلوبه ، فكان حلقة الوصل بين أقرانه من أصحاب المذاهب الغارقة فى الحداثة وبين تحفظـات الأكاديمية الملكية البريطانيـة الملتزمـة ، وانتهى الحوار إلى تأسيس ما يعرف بجماعة الفن الحديث فى إنجلترا عـام ١٨٨٦ ..

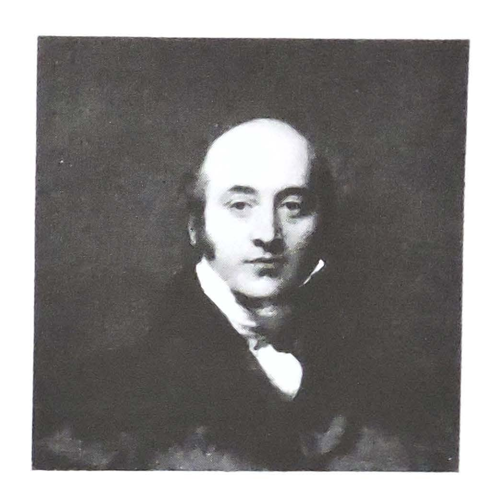
وتألق اسم الفنان حتى انتخب عضوا بالأكاديمية عام ١٨٩٥ . وعهد إليه بوضع المناهج فى معاهـد الفـن فى بريطانيا .. بجانب عمله كأستاذ ثم رئيس للأكاديمية عام ١٩٠٨ . وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، كلف من قبل وزارة الإعلام البريطانيـة بـرسم سيـل مـن الملصقـات والمطبوعات التى تمجد الجيش وتدعو للصمود ، كما قـام برسم لوحات حائطية ضخمة لتسجيل البطولات والمعارك الشهيرة للمتحف الحربى وغيره من المؤسسات العامـة .

ونظراً للروائع الفنية ذات المستوى الرفيع التى أثرى بها الفن فى بلاده .. منح كلوزن لقب (سير) فى أول شهر يولية عام ١٩٢٧ . وظل الفنان يواصل إبداعه المتفوق فى تجرد وحب وإنكار لذاته حتى أقعده المرض قبل عام واحد من وفاته ، وهكذا الفنان : موهبة متفوقة .. وسلوك قـويم من واقع تواضعه وأستاذيته ! وفى عام ١٩٤٤ لفظ آخر أنفاسه بعد حياة جادة طويلة مثمرة .. ولكن أعماله الرائعة قد أهمل تقييمها وإلقاء الضوء عليها لسنوات طويلة بعـد موته .. إلى أن ظهرت أخيراً عدة مؤلفات ومجلدات للوحاته مدعمة بالتحليلات والتمجيد والتقييم الشامل لأعمالـه .. كأحد القمم فى تاريخ الفن البريطانى .. وواحد من رواد الفن العالميين .

وكانت معظم أعماله مناظر خارجية للطبيعة بألـوانها التأثيرية البراقة كما كان يحسب ألف حساب للوحاته التى تتناول الموضوعات الداخلية من حيث صعوبـة تكـوينها وقياس أبعادها وألوانها ومصادر الإضاءة فيها .. وبهذا ، فقد امتاز على التأثيريين بمثل هذه المناظر الداخلية ودقة توازنها التى تنم عن موهبته العبقرية .. وأخيراً ، فكما قلنا : لعلها المرة الأولى التى يكتب فيها عن الفنان وإبداعه ، بالعربية .. وإذا كنا ننقب بين ركامات الماضى ، لنلقى الضوء على درر الإبداع المطمورة قبل أن تضيع بين تراكم الزحام والنسيان .. نكون قد تسامينا برسالتنا الإعلامية والفنية إلى مستوى عطاء هؤلاء الكبار !



لورانس وحسناوات المجتمع



سير توماس لورانس (١٧٦٩ ــ ١٨٣٠) بريشته .

.. قد يسأل سائل عن اهتماماتنا فى تقديم هذه النماذج الجمالية على هذه الصفحات . إنها نماذج فنية على أكبر قدر من المعالجة الإبداعية رفيعة المستوى ، ولكنها فى الوقت ذاته لا تشتط إلى متاهات المدارس العقلانية الغامضة والتجريد الحديث ، أى أنها تجمع بين عالمية وعبقرية الفنان والجماليات البصرية المبهرة . والسبب فى ذلك هو حرصنا فى هذا الكتاب على تقديم روائع الفن العالمى فى صورة ميسرة جميلة ، بعيدة عن الطلاسم التقنية والمذاهب الغارقة فى الذاتية واللاشعور وما وراء الطبيعة وغياهب الأحلام والتيارات الفلسفية التى أتت بها تعقيدات المجتمع الغربى فى القرن العشرين ! إن لوحاتنا هذه هى أشبه ما تكون بسلة الزهور أو ابتسامة الرضا أو لمسة الجمال.وليس معنى هذا أن عوالم التجريد والسيريالية وغيرها من الفنون الحديثة ليست فنونا راقية ، ولكنها تفتقر إلى الجمال الطبيعى والمثاليات البصرية التى نحرص هنا على تقديمها إلى قرائنا على اختلاف نزعاتهم وتفاوت ثقافاتهم ومداركهم وتذوقهم . أى أننا بقدر ما نقدم المعلومة الثقافية الميسرة ، نقدم الرائعة الفنية على نفس المستوى من اليسر والوضوح.ولهذا ركزنا فى استعراضاتنا لروائع الفن العالمى على هؤلاء الفنانين الذين يحظون بتلك المواهب الفذة من العبقرية الفنية والأساليب الجمالية المبهرة . وكما قال (رينوار) : « إن الفن عندى بصرية جميلة ممتعة قبل كل شىء » !

وموضوعنا هنا عن فناننا الإنجليزى توماس لورانس (١٧٦٩ ــ ١٨٣٠) الذى عاش أزهى فترات الفن البريطانى فى تاريخ الإبداع .. حيث أطلق عليها عصر النهضة الفنية آنذاك . والسمة المميزة للفنانين الإنجليز فى تلك الفترة هى ولعهم برسم الشخصيات portraits ولا سيما صور حسناوات المجتمع والمشاهير من الرجال والنساء.وهكذا تألقت أعمال أقطاب المبدعين الإنجليز من أمثال هوجارث ورينولدز ورومنى وغيرهم . والفن الإنجليزى عريق يضرب جذوره فى أعماق القرون الماضية ؛ فقد اشتهرت قبائل الكلت القديمة بالمخطوطات الدينية منذ القرن السادس الميلادى ، وكانت هذه المخطوطات تزخرف بالزخارف الدقيقة والمنمنمات الرمزية الجميلة ، ومضى التصوير الإنجليزى يركز خلال القرون الوسطى على خدمة متطلبات



الأميرة ليفان .

الكنيسة ، فيقدم لنوافذها القوطية أجمل الصور الدينية مرسومة على الزجاج الملون ، كما اشتهر البيت الإنجليزى بصوره وستائره وزخارفه ذات الرموز الدينية والتشكيلات الرائعة ، وهكذا شهد الفن عصرا من الازدهار . وكانت الكنيسة الكاثوليكية آنذاك تشجع الفن وتستقطب جهود الفنانين ، ولكن ، ما أن حل المذهب البروتستانتى محل الكاثوليكى حتى أيقن الفنانون أن المذهب الجديد ينظر إلى الفن نظرة فتور تحولت عاما بعد عام إلى كراهية .. ولم يكن أمام الفنانين ـــ والحال هذه ـــ إلاّ أن يبحثوا عن مجالات أخرى يمارسون فيها نشاطهم ، فاتجهوا إلى الملوك والنبلاء والأثرياء ، يخلدون صورهم فى لوحاتهم بأساليب أشبه إلى الصور التى تمرسوا عليها من قبل .. مما دفع بهذه الشخصيات إلى استقدام فنانين أجانب من الدول الأوروبية لرسم ما يحتاجون من الصور والمناظر الطبيعية لقصورهم . وظل تصوير المناظر والأشخاص وقفاً على المصورين الوافدين لمدة قرنين كاملين . أما عامة الشعب الإنجليزى فقد كانوا لا يتذوقون هذا النوع من الفنون الوجدانية الراقية لأنهم لم يألفوا إلاّ الفنون التطبيقية التى تؤتى نفعها بصورة مباشرة فى حياتهم اليومية ..

** ولكن صحوة فنية كبرى قد أنعشت الفن الإنجليزى مرة أخرى فى القرن الثامن عشر .. (ويتذكر قراؤنا أن هذا القرن كان بمثابة تحول وبعث فنى عام فى معظم شعوب العالم المتحضر بأسره) .

وتوالى ظهور أساطين الفن الكبار .. وقد اعتبر (هوجارث) رائدا لهذه الحركة الفنية الناهضة . ثم ظهر مفخرة إنجلترا عن جدارة .. وهو أستاذ الأساتذة الفنان (جوشوا رينولدز ١٧٢٧ ـــ ١٧٩٢) الذى يرجع إليه الفضل فى تأسيس (المجمع الملكى للفنون الجميلة بلندن) ، وقد استطاع أن يهز التقاليد الإنجليزية المتزمتة التى طالما وقفت حائلاً بين الإنجليز وبين تفتحهم إلى التذوق واقتناء تحف الفن الجميل .

وظهر على مسرح الإبداع المتفوق فناننا توماس لورانس .. وقد قلده رينولدز وسام العبقرية عندما أعلن على الملأ أن أعمال لورانس تعتبر روائع فنية (Masterpieces) فذة .. وشد الأستاذ على يد لورانس قائلا له : « لا شك أن العالم سينظر إلى أعمالك بكل التبجيل والاحترام ، ليبرهن لك على صحة رأيى فيك » !

وطارت شهرة الفنان فى الأوساط الراقية وصار رسام المشاهير وحلم الفاتنات وسيدات المجتمع البريطانى ، وتسابق الجميع حول مرسمه فى سبيل الحصول على صورة شخصية لهم من إبداعه كأمل يداعب خيالهم الطموح ! بل إن صورة من رسم توماس لورانس كانت جواز المرور إلى الشهرة والتألق وحديث المجتمعات الفنية فى بريطانيا وأوروبا بأسرها .

وبعد أن أضحى الفنان ملء الأسماع والأبصار ، ادخر جهده العبقرى فى أواخر سنوات عمره لرسم كبار الشخصيات والسيدات من ذوات الحسن والجمال ..

فلنتأمل سوياً صور هؤلاء الحسان (الأميرة ليفان Lieven) التى تعتبر حالياً من أثمن مقتنيات المتحف الوطنى البريطانى بلندن ..

ولوحة الفاتنة كونتيسة ديربى : إليزابيث فارن ـــ قبل أن تتزوج ديربى الشهير (وهو الذى أسس سباق الديربى فى إنجلترا) ، وكانت إليزابيث إحدى نجمات مسرح الهايماركت فى لندن ، وقد بدأت العمل بالمسرح منذ أن كان عمرها خمسة عشر عاماً .. واعتزلته وهى فى الخامسة والثلاثين لتتزوج من (إيرل أوف ديربى) بعد وفاة زوجته الأولى . وفى إحدى الحفلات الأرستقراطية تعرف الفنان توماس لورانس على هذه الفاتنة .. وكانت فى الحادية والعشرين وقتها عندما رسم لها هذه اللوحة التى كانت سببا فى شهرته المبكرة .. كما كانت ـــ كذلك ـــ عاملاً هاماً فى شهرة إليزابيث .. بل وفى خلود اسمها فى المتاحف ، وفى كتب الفن والتاريخ .



إليزابيث فارن (كونتيسة ديربي) .

باربيزون ... معزوفة الطبيعة فى وجدان الفنان



المنصب التذكارى فى قرية « باربيزون » لمؤسسى لجماعة « تيودور روسو » ، وجان ميبيه

بلغ الصراع أشده فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بين فريقى الكلاسيكيين والرومانتيكيين ، حتى وصل إلى قمة التحدى فى الربع الثانى من ذلك القرن .. إلى أن ظهرت الجمهورية الفرنسية الثانية بعد ثورة ١٨٤٨ كنتيجة طبيعية لحركات القمع التى سادت فرنسا خلال حكم شارل العاشر (١٨٢٤ ـــ ١٨٣٠) و لويس فيليب من بعده (١٨٣٠ ــ ١٨٤٨) ، كما كانت لآراء « جان جاك روسو » التى نادت بالرجوع إلى الطبيعة والفطرة ، أثر كبير فى إشعال الثورة ضد الفنون الكلاسيكية .

ولكن التعنت الشديد الذى انتهجه الفنان (دافيد) فى فرض الكلاسيكية على فنانى الثورة والرجوع بالفن إلى الجذور القديمة والمثاليات الإغريقية ذات الطابع البارد الرصين أحدث رد فعل بين بعض الفنانين الشبان ، فسعوا إلى التحرر من تلك الأساليب الكلاسيكية التقليدية ، متجهين إلى تصوير الانفعالات من الأحداث التاريخية وكذلك الأحداث المعاصرة .. وتولى قيادة الدكتاتورية الفنية فى فرنسا بعد (دافيد) ، تلميذه (آنجر) عام ١٨٢٥ ، وبالرغم من أن آنجر قد اتجه بالكلاسيكية إلى البحث الملتزم عن (الجمال) أينما كان شريطة أن يكون مثاليا ، وتحرر من قيود الميثيولوجيات الإغريقية والرومانية التى فرضها أستاذه (دافيد) ، إلا أن القيد ظل يكبل الفنانين الباحثين عن التحرر واللجوء إلى الفطرة والطبيعة وتأمل أسرار الكون حولهم دون كلفة أو تصنع !

وما أن حل عام ١٨٣٠ ، حتى هجرت مجموعة من الفنانين الشبان باريس ، هربا من سطوة القيود الأكاديمية التى فرضها آنجر ، ولجأوا إلى قرية صغيرة تبعد عن العاصمة حوالى ٤٨ كيلو مترا تدعى (باربيزون) وتقع على حدود غابة (فونتينبلو) الشمالية . وتزايدت هجرة الفنانين إلى هذه القرية فى المدة (١٨٣٠ ـــ ١٨٧٥) . وتكونت منهم جماعة عرفت باسم (مدرسة باربيزون) أو جماعة الخروج إلى الطبيعة . وقام الفنانون برسم موضوعات استوحوها من الطبيعة مباشرة تتناول البحر والسماء والغابة وكل ما تقع عليه أعينهم من جماليات الكون الفسيح .

وقد اعتبرت أعمالهم خروجا على القواعد الأكاديمية وشروطها الحازمة ، تلك الشروط التى وضعها آنجر وفريق أساتذة الأكاديمية الفرنسية .

جمال الطبيعة ــ تيودور روسو (رسمها عام ١٨٦٠)

الحصاد ــ (جان فرانسوا ميه) (رسمها عام ١٨٧٥)



نهير — (جورج ميشيل) رسمها عام ١٨٣٥ .

ومن أجل هذا التحرر الذى اعتبره الأكاديميون تمردا وخروجا على مثاليات الفن الرفيع . كانت ترفض تلك الأعمال فى معارض (الصالون) السنوية ، حيث كان العرض بالصالون هو وثيقة الاعتراف بالفنان من وجهة نظر أساطين الأكاديميين آنذاك ! وما أن انتهى حكم الملك لويس فيليب عام ١٨٤٨ لتحل محله الجمهورية ، حتى شجعت الدولة (الفن الواقعي) ، ولم ترفض أعمال فنانى بعض أعضاء الجماعة البارزين فى لجنة تحكيم الصالون السنوى فى باريس .. وسادت مدرستهم .. إلى أن تطورت بعد ذلك .. ونشأ فن جديد يعالج طريقة رسم المناظر الطبيعية الخارجية مستغلا نظريات العلوم الحديثة فى تحليل ضوء الشمس وألوان الطيف .. هو المذهب التأثيرى ، الذى ازدهر فى الثلث الأخير من القرن الماضى .

وقد أثرت جماعة باربيزون فن التصوير الحديث بالروائع الخالدة من المناظر الطبيعية .. وقاد أعضاءها المصور (تيودور روسو) — (١٨١٢ — ١٨٦٧) — وهو المؤسس الفعلى لهذه المدرسة التى مجدت الطبيعة فى لوحات شاعرية واقعية رومانتيكية . وقد حصل (روسو) على جائزة صالون باريس عام ١٨٤٨ .. وتأكد نجاحه وتألقت عبقريته عندما خصصت له قاعة مستقلة لأعماله وحدها بصالون باريس فى المعرض السنوى عام ١٨٥٥ . وتألق جمال الطبيعة فى وجدان الناس وفى بصائر الفنانين وفى أروقة المتاحف ! وكان مقدمة للتاثيرية أو الانطباعية ..

وعندما تتسابق اليوم هذه المتاحف العالمية الشهيرة لشراء إحدى لوحات تيودور روسو أو جان مييه أو غيرهما من فنانى باربيزون ، وتدفع الملايين ثمنا لها ، نتذكر دائما تلك اللوحات التى كانت ترفض باستمرار من رجال الصالون والأكاديمية الفرنسية فى الفترة (١٨٣٧ — ١٨٤٨) بدعوى شططها وريفيتها وخروجها على قواعد الجمال المثالى !.. ولنتامل معا هذه اللوحة المنشورة على الصفحة المقابلة لنرى جمال الطبيعة وسحر اللمسات وكأنها تناغم موسيقى رائع بين الأرض والسماء .



الغدير — (جول دوبريه) (رسمها عام ١٨٣٠)

فيلاسكويز : الإبداع من القمة

كان طبيعياً أن ينشأ فى روما فى نهاية القرن السادس عشر فن له سماته المميزة ، ولا أقول إن هذا الفن قد قام على أنقاض العصر الذهبى ، بل استفاد منه وجعله مثلا يحتذى به من حيث روعة الأداء التكنيكى ، ولكنه تحرر من طراز النهجية الذى ساد فى أواخره وعرف هذا الطراز باسم (الباروك) ، ويطلق مؤرخو الفنون كلمة باروك Baroque على الطراز الفنى الذى ساد فى أوربا فى الفترة (١٦٠٠ ـــ ١٧٥٠م) والمعنى الأصلى لهذه التسمية مصدرها أسبانى فى الغالب Barruco تطلق على اللؤلؤة غير المنتظمة فى الاستدارة ، ولقد استمد هذا الوصف للتعبير عن الفنون المخالفة للتقاليد السائدة والمناهضة لمفهوم الفن الكلاسيكى والخارجة على النهجية المتوارثة .

وقد لا يتسع المجال لاستعراض التطورات الدينية والسياسية والفكرية التى سادت أوربا ـــ وإيطاليا بالذات ـــ وشجعت فن الباروك ، ولكنه باختصار كان نتيجة لتحرر الفن من سيطرة الكنيسة البروتستانتية وظهور القوة الكاثوليكية الجديدة وزيادة نفوذ العائلات الحاكمة فى أوروبا واستقطاب الفنانين لتزيين قصورهم وحياتهم اليومية بلمساتهم الفنية . كما كان للاكتشافات العلمية التى بدأت تنشط وقتها ، أثر كبير فى نشأة هذا الفن .

ونأتى إلى إسبانيا .. فنجد أنها فى القرن السادس عشر والسابع عشر قد أصبحت قوة عظيمة سيطرت على دول أوربية كثيرة ، حتى أن إيطاليا فى معظمها كانت تابعة لأسبانيا ، وكذلك كانت دول الشمال الأوروبى .. إلا أن

تمثال فلاسكويز فى مدريد (بميدان شارع باسيو دل برادو) تخليدا لذكرى أعظم رسام للبلاط الإسبانى فى القرن السابع عشر (١٥٩٩ ـــ ١٦٦٠) .





وصيفات الشرف (رسمها فلاسكويز عام ١٦٥٦) .



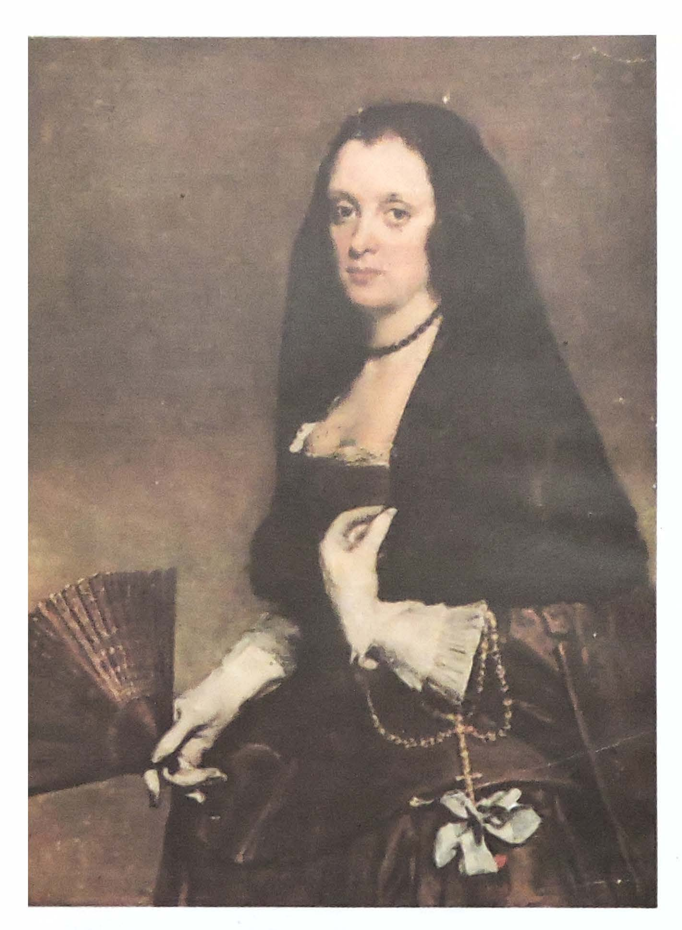




بعض الرسوم المعاصرة تحكى قصة الفنان وإبداعاته فى القصر الملكى الإسبانى .

إنتاجها فى الفن لم يصل إلى ما وصله الفنانون الإيطاليون أو فنانو دول الشمال . وظهر فن الباروك فى أسبانيا فى أواخر القرن السادس عشر ، وازدهر بصفة خاصة فى مدينة اشبيليه على يد فناننا فيلاسكويز Velasques الذى تأثر بأعمال عباقرة عصر النهضة الإيطالى .. حتى أنه تتلمذ على يد أحد الفنانين الإيطاليين فى أوائل القرن السابع عشر ، وتزوج ابنته .

وترك اشبيليه واستقر فى العاصمة مدريد وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، فعينه الملك فيليب الرابع رساما خاصا بالقصر الملكى ، وقضى طوال حياته يرسم معظم لوحاته للعائلة المالكة .. وقامت بينه وبين الفنان روبنز ، فنان الشمال الأوربى الشهير ، صلات صداقة وتعاون وتبادل فى الرأى والخبرة ، وكان روبنز ــ كذلك ــ رساماً للبلاط الملكى فى بلده (أنتورب) حيث كان رساماً خاصاً لإيزابيلا وزوجها الأمير البرت .. ويلاحظ أن أنتورب وقتها كانت بمثابة مركز الإشعاع الفنى الشمالى فى أقليم الفلمنك كما كانت البندقية فى القرن السابق ، ولذلك كانت صداقة فناننا فيلاسكويز لفنان الشمال الأوروبى روبنز حدثاً رائعاً انعكس على إبداع كل منهما .. وفى عام ١٦٤٩ أرسل فيليب فنانه إلى روما لرسم البابا (إينوسنت العاشر) .. وقضى فيلاسكويز عامين هناك ، درس فيهما روائع أساطين العصر الذهبى الإيطالى .. وعاد إلى مدريد ليعينه الملك حاكما للقصر



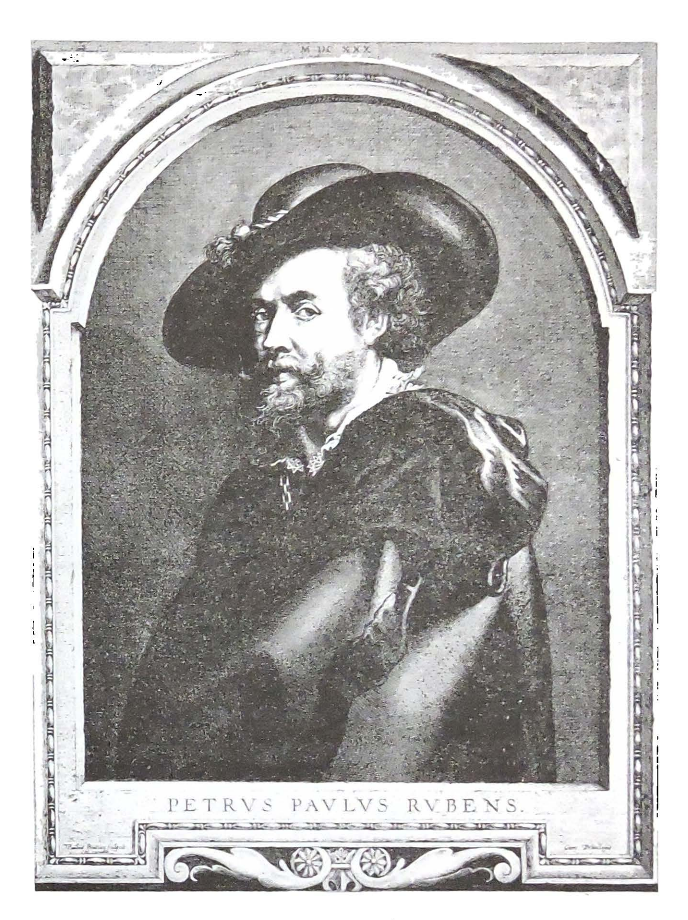
المرأة والمروحة

الملكى ! ولما تزوج فيليب الرابع من مارى تيريز النمساوية ، رسم لها الفنان عشرات من اللوحات الخالدة ومازالت قمما فنية حتى يومنا هذا . ومن أهم هذه الأعمال .. لوحة كبيرة أسماها الفنان (وصيفات الشرف) رسمها عام ١٦٥٦ ، رسم فيها الأميرة الصغيرة (مارجريتا) تتوسط مجموعة من وصيفاتها ، وقد رسم فيلاسكويز نفسه فى أقصى الجهة اليسرى من اللوحة ممسكا بفرشاته ، منهمكا فى عمله ، وأمامه لوحة كبيرة يرسم عليها الأميرة ووصيفاتها . واللوحة ضخمة إذ يبلغ طولها ٣١٨ سنتيمترا وعرضها ٢٧٦ سنتيمترا ، ومحفوظة حاليا بمتحف البرادو بمدريد .. وقد تعرضت هذه اللوحة لحادث خطير ، حيث شب حريق هائل دمر القصر الملكى بمدريد عام ١٧٣٤ ، وقد حرصت الأسرة المالكة وقتها على إنقاذ الروائع الفنية قبل كل شىء ، وأخرجت هذه اللوحة بأعجوبة قبل أن تأتى النيران على القصر بكل ما فيه من نفائس .!

ونرى هذه اللوحة أمامنا شاهدة على عبقرية الفنان .

ولوحة أخرى رسمها فيلاسكويز عام ١٦٦٠ وأسماها السيدة والمروحة .

ولكى نعرف قيمة هذا الفنان الإسبانى العظيم يكفى أن نستعيد رأى الفنان الفرنسى إدوار مانيه (زعيم التأثيريين فى القرن التاسع عشر) عندما رأى أعماله إذ قال : « لقد كان فيلاسكويز أستاذ الرسامين بلا جدال » !



بيتر بول روبنز (بريشته)

مدينة « انتويرب » مسقط رأس فناننا « روبنز » بلدة وادعة .. حالمة .. عريقة ، خرجت أجيالا ، من عمالقة الفن الذين أثروا عصر النهضة الأوروبى بكنوز الإبداع الرفيع ! وقد عرفت هذه الإبداعات فى تاريخ الفن (بمدرسة أنتويرب) ، وكان آخر أساطينها هو (بيتر بول روبنز) . وتقع المدينة فى تلك المنطقة من الأراضى المنخفضة فى الشمال الأوروبى ، والتى يطلق عليها الآن اسم بلجيكا ، فقد كانت هولندا وبلجيكا فى تلك الأيام (القرن السادس عشر) ضمن مجموعة أقاليم متفرقة تحت حكم أسبانيا .

التحق الصبى روبنز ــ وهو فى الثالثة عشرة من عمره ــ عام ١٥٩٠ بمراسم الفنانين فى المدينة مبتدئا مسيرة عشر سنوات حافلة ، قضاها متتلمذاً على يد المشاهير آنذاك ، وتفتحت موهبته وبصيرته ، وأظهر نبوغاً مبكراً جعله محط الأنظار وموضع الرعاية الخاصة من أساتذته الفنانين ،

واختلط بالعديد من الشخصيات ذوى الجنسيات المختلفة ، فاكتسب مهارات ومعلومات ولغات كثيرة ، حتى أنه أجاد — بجانب لغته الفلمنكية — عدة لغات أخرى كالأسبانية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية .

وعندما بلغ الثالثة والعشرين ، قصد إيطاليا لدراسة فنون عصر النهضة ، مبهوراً بعبقرية ليوناردو دافنشى ومايكل أنجلو ورفاييل وغيرهم من الأساطين . وتألق روبنز وذاعت شهرته فى روما وفلورنسا ، ثم قفل راجعاً إلى بلدته أنتويرب لتبدأ قصة أمجاده الخالدة .. فقد سبقته إليها شهرته ونبوغه وتفوقه وغزارة علمه واتساع مداركه ! وكان طبيعياً أن تسارع الأميرة (إيزابيللا) وزوجها (ألبرت) — وكانا يحكمان أنتويرب — إلى تعيينه رسام البلاط ومستشاراً خاصاً لهما .

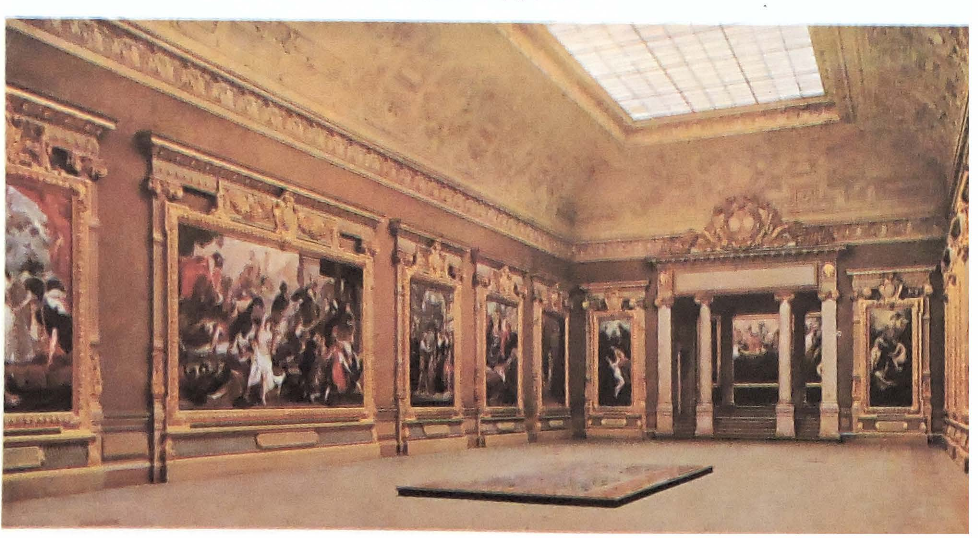
وللفن إيحاءاته وسحره الذى لا يقاوم ! ومراسم الفنانين فى ذلك الوقت كانت هى وكالات الأنباء التى تعلن عن الجمال والفتنة الكامنة خلف الأسوار والأستار فى البيوتات العريقة .. فلا غرو أن تتطلع عيون الحسان إلى أنامل الفنان الملهمة ، وتمثلت روائعه فى مخيلتهن تطوف العواصم العالمية وتزدان بها المتاحف فى أطر من ذهب !

وكم جلست الأميرة إيزابيللا أمام روبنز ليرسمها فى كل الأوضاع ، مما شجع فاتنات الشمال الأوروبى كله لكى يطرقن بابه حباً فى الفن وطمعا فى الشهرة وأملا فى الخلود ، ولهذا أطلق المؤرخون على فناننا روبنز « أعظم مصورى النساء فى التاريخ » . وفى عام ١٦٠٩ ، سعت إحدى العائلات إلى الفنان لكى يرسم ابنتها الجميلة المدللة ، وكان اسمها (إيزابيللا برانت) .. فتاة رائعة الجمال فى الثامنة عشرة من عمرها ، تتمتع بجاذبية وذكاء نادرين .. وترددت الفاتنة على مرسم الفنان وما هى إلا جلسات معدودة ، حتى كانت قد ملأت على الفنان كل حياته .. وكان لا بد له من أن يتخذها زوجته وملهمته . ورفع الفنان شعاره الخالد : لتحيا المرأة !

وصارت الزوجة الجميلة نموذجه الرائع ونجمة لوحاته الخالدة .. ومع استقراره الوجدانى ، اكتسبت لوحات الفنان طابعاً رائقاً يزخر بالحيوية والشفافية ! وتألق الفنان هائماً بحب زوجته الفاتنة .. وعمت شهرته أرجاء الأرض . ويروى لنا التاريخ أنه فى عام ١٦١١ ، رفض أكثر من مائة طلب لرسم كبار الشخصيات فى عصره من رجالات الحكم وسيدات الطبقة الأرستقراطية ، ولم يكن ذلك تعالياً أو تمنعاً ، ولكن لأن مرسمه كان محجوزاً لعدة أعوام تالية !

وقد عرف عن روبنز أنه كان يستقبل زائريه، ويستمع إلى شخص يقرأ له شيئاً ويتأمل لوحة لأحد تلامذته ، ويوجه انتقادات ونصائح لفنان آخر .. يفعل ذلك كله فى وقت

قاعة أعمال روبنز فى متحف اللوفر باريس



واحد ! فلا عجب أن قال عن نفسه يوماً « من بين الناس جميعاً ، أنا أكثرهم عملا ، وأشدهم معاناة للإرهاق ، كما أنى أفوقهم ذكاء واستمتاعا بالجمال » !.. وماتت الزوجة الرقيقة الملهمة .. وكان روبنز قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره ، و لم يزل قلبه ينبض بالدفء والتفتح على عالم الجمال ، فأحب صبية عمرها ستة عشر عاماً هى (هيلين فورمان) .. وتزوجها .. طفلة ريفية ساذجة .. وكان هذا منطقياً مع نفسية الفنان وحياته ونفوذه وشهرته !

لقد زهد روبنز حياة البلاط والثراء ، ومل المظاهر الأرستقراطية المتأنقة ..

وكان لا بد من أن يعود إلى حياة البساطة على سجيتها وطبيعتها الوادعة .. فآثر تلك الطفلة البريئة على فاتنات عصرها .

إنه فنان .. وأى فنان .. إنه رجل الأمجاد والتاريخ .. روبنز !

صورة حبى

ومع هذا المقال نقدم سبقا فنيا وإعلاميا لم يسبقنا إليه أحد من قبل فى العالم أجمع أو على الأقل — فى عالمنا العربى — وهو نشر لوحة روبنز التى نشاهدها لأول مرة .

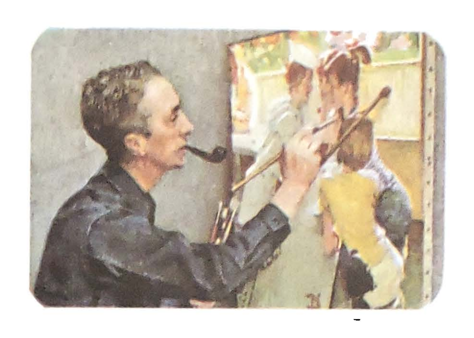
والتى أسماها (صورة حبى) ، وقد رسم فيها الفنان حبيبته الجميلة (هيلين فورمان) وكان يؤكد لأصدقائه وخاصته أن هذه اللوحة أجمل وأثمن ما خطته ريشته على الإطلاق ! كما كانت أقرب أعمال روبنز إلى قلب هيلين ذاتها . وهيلين فورمان Helena Fourment هى الزوجة الثانية للفنان ، وكانت صبية فى السادسة عشرة من عمرها كما ذكرنا ، وقد رسم لها هذه الصورة قبيل زواجه منها بشهور قليلة ، وظل محتفظا بها ، يضن على غيره بمجرد النظر إليها ، فلم يعرضها فى أىٍّ من معارضه ، و لم يُقدَّر لها أن تحتل مكانها بين لوحاته فى أى متحف .. بل و لم تنشر حتى اليوم فى أى كتاب من كتب الفن التى تتحدث عن روائع روبنز .. ولا ندرى كيف اختفت هذه اللوحة حتى ظهرت فى أوائل القرن العشرين ضمن مجموعة مقتنيات خاصة لأسرة دوق ريتشموند البريطانية بلندن (The Duke of Richmond and Gordon) وهى ما زالت معلقة بقصر الأسرة حتى يومنا هذا ، و لم يُسمح بتداولها أو عرضها أو عمل مستنسخات منها أو نشرها فى أى كتاب يتحدث عن روبنز . وقد يسأل سائل عن هذه الصورة الفريدة التى نراها مطبوعة مع هذا المقال لأول مرة .. كيف حصلنا عليها .. فأقول : لقد تم تصويرها من بيت أسرة ريتشموند بإذن خاص لعمل بحث أكاديمى ..

نعود إلى هيلين فورمان ، تلك الصبية الريفية التى تزوجها روبنز وهو يكبرها بسبع وثلاثين عاما (كان فى الثالثة والخمسين وهى فى السادسة عشرة) ، فنجد أنها أصغر إخوتها العشرة من إبيها (دانيال فورمان) وأمها (كلارا ستابريت) . ونقرأ فى كتاب (إميل ميشيل) الشهير الذى كتبه عن حياة (بيتر بول روبنز) : إن عائلة هيلين كانت من العائلات الريفية العريقة ، وكانت تعد من الطبقة فوق المتوسطة ، وبالرغم من أشقائها العشرة ، وموارد والدها المحدودة ، فقد بالغ والداها فى تجهيزها وإهدائها أثمن مقتنيات العائلة التى ورثتها عن الآباء والأجداد ، لأن هيلين كانت تحتل فى قلب جميع أفراد أسرتها مكانة مرموقة لذكائها وجمالها وجاذبيتها بالرغم من صغر سنها . وربما يرجع ذلك إلى شهرة روبنز الذى ترك قصور النبلاء وأميرات الأسر الحاكمة ، واختار الصبية هيلين بكل ريفيتها وسذاجتها .. وتم زواجهما فى اليوم السادس من ديسمبر عام ١٦٣٠ .

وعندئذ بدأت المرحلة الفنية الثانية (الأخيرة) لروبنز ، تلك المرحلة التى وصل فيها إلى قمة مجده وروعة إبداعه ، وقد اتخذ من هيلين نموذجا للوحاته ، فكانت النموذج المثالى لموضوعاته (الميثولوجية) التى رسم فيها العديد من موضوعات الأساطير الإغريقية وأهمها (هيلين فاتنة طروادة) . وكانت الزوجة الصغيرة ، مثالا للجمال الأنثوى فى عصره ، كما كان اكتناز جسدها وبراءة وجهها هما أنسب تعبير لجمال المرأة آنذاك .. وهكذا خلدت الزوجة الفاتنة فى لوحات روبنز ، وشاركته الشهرة والمجد والتألق حتى آخر الطريق .



حديث المرآة .. وتألق فنان الشعب



ربما انفرد موضوعنا هذا بملامح معينة تميزه عما تعودنا أن نستعرضه سوياً على هذه الصفحات ، فإن مفهوم الفن العالمى فى أذهاننا هو تلك الأعمال المتحفية الشهيرة التى أبدعتها الأنامل الملهمة للفنانين العظام عبر قرون التاريخ .. ولكننا ندرك فى نفس الوقت أن العالمية قد تطور تعريفها ومضمونها تبعاً لما استجد على العالم الحديث من متطلبات ومتغيرات وتحولات اجتماعية وسياسية ووجدانية . فلا غرو أن نرى تعريف (العالمية) — طبقاً لهذه الظروف المعاصرة — يتناسب مع ما يحظى به العمل من شهرة وذيوع . وما يتميز به صاحبه من ميزات بيئية وإقليمية .. وقد تأتى القيمة الإبداعية لهذا العمل أو ذاك بعد تلك الاعتبارات وغيرها مما يحكم إيقاع الحياة فى عالم اليوم .. عالم الصراع والسيطرة والدعايات الموجهة !

أما الفن التشكيلى فما زال يحظى بكيانه المستقل ، كما أنه يفرض نفسه دائماً متخطياً حدود الزمان والمكان بما يزخر به من عبقريات ومواهب فذة حباها الله للبشر جميعاً على السواء ، وبذلك أصبحت العالمية فى الفن ليست ادعاء ولا احتكارا ولا سرفاً ولا ترفاً ..

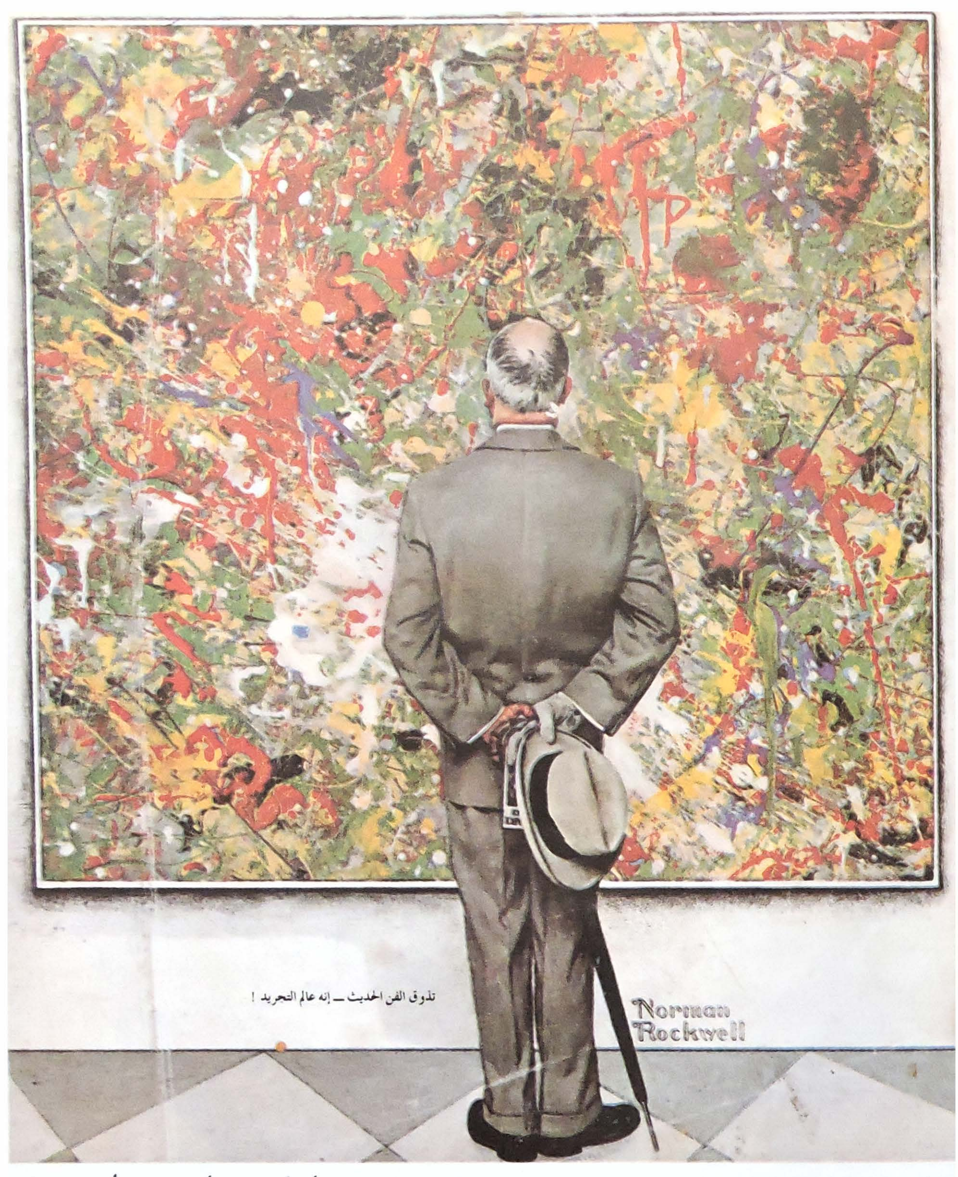
والعمل الملهم الأصيل يفرض مكانه ومكانته ويقدم نفسه بنفسه ، يتفاعل مع آلام الناس وآمالهم ويتأثر بهم كما يؤثر فيهم ، وكلما اتسعت قاعدته وارتفعت قمته ، ازداد فى الوجدان رسوخاً .. وبالتالى ، أصبح الفنان رائداً يدخل فى نطاق العالمية ، ويكتب فى سجل الخالدين . لأن الفن الحقيقى يخاطب البصيرة بمعنوياته السامية ، وإذا كان من السهل أن تبهر الأبصار .. فمن الصعب بل من العسير أن تسيطر على العواطف والبصائر !!

وفناننا اليوم — نورمان روكويل — اسم عالمى كبير ، ظل عملاقاً رائعاً على مدى نحو سبعين عاماً من العطاء الدائب المخلص المتواصل.. وما نراه من أعماله على الصفحات المقابلة ، ليس تحفة فريدة من أروقة المتاحف رسمها أحد فنانى التاريخ ، ولكننا أمام (لوحة) معاصرة تحس أنك تراها من حولك فى كل وقت ، بل وتخاطبها فى حوار صامت وإعجاب فطرى بعيد عن خفايا الإعجازات الفنية وتعقيداتها (التكنيكية) ومساراتها الأكاديمية الغامضة !

أن (روكويل) هو فنان الشعب الأمريكى فى القرن العشرين بلا منازع ، يخاطبه من أوسع قنواته الإعلامية وأكثرها ذيوعاً ، انتهج أسلوباً سهلا ميسراً فى تسجيل خواطره ومشاهداته وآرائه ، وقد تربع على عرش هذا التخصص الفنى الجماهيرى ، الذى يعرف باسم الـ (Illustration) ويعنى بالصورة التوضيحية المطبوعة المنفذة — غالباً — بأسلوب واقعى مدروس .

وكلما اكتملت فيه القواعد الفنية والكفاءة العالمية ، كلما صار إبداعاً يتمتع بكافة الخواص الفنية الراقية ، بل ربما وصل إلى مرتبة الفن المتحفى الرفيع كما هو الحال فى أعمال نورمان روكويل ، حيث ينفذ لوحاته مكبرة بالألوان الزيتية على أكمل ما يكون الفن الجميل .

وقد بلغ الفنان أوج تألقه فى الخمسينات والستينات ، حيث كانت لوحاته التى احتكرتها آنذاك مجلة The Saturday



تذوق الفن الحديث ـــ إنه عالم التجريد !

Evening Post .

ومجلة Look العالميتان ، تنفذ مكبرة كما أسلفنا لتطبع بالملايين على أغلفتها ، ثم تتناولها عدة جهات فنية وإعلامية أخرى فى نفس الوقت لتنشرها فى ملصقات ومجلدات وكتب وبطاقات وفى أغراض كثيرة أخرى . ثم يأتى دور المؤسسات المتخصصة فى طبع اللوحات المتحفية ، فتطبع من أعمال روكويل ملايين أخرى توزعها فى شتى أنحاء المعمورة .



يرسم نفسه ثلاث مرات فى لوحة واحدة .

وتتميز أعمال روكويل بأنها كاللقطات الواعية البارعة .. أو كالحكم والأمثال الشعبية ، سهلة المبنى عميقة المغزى والمعنى . ونرى على الصفحة المقابلة إحدى لوحاته الشهيرة ، وقد نشرت لأول مرة على غلاف مجلة (بوست) فى السادس من مارس عام ١٩٥٤ :

فتاة بين الطفولة والشباب ، تجلس أمام مرآتها وقد وضعت على ركبتيها أحدى المجلات الفنية ، وقذفت بعروستها التى طالما شاركتها مهدها .. وأخذت تتأمل المرآة فى حوار صامت مع الأطياف والأحلام والآمال الوردية .. ولسان حالها يقول : لندع دمية الطفولة جانباً .. فقد كبرت ، وربما أصبحت نجمة شهيرة كهذه التى تحتل صفحات المجلة .. إنه تأمل مشوب بالتفاؤل والرضى ، فقسماتها واتساق ملامحها وجاذبيتها المبكرة .. توحى لها بهذه الثقة.. وكأنها تستحثنا نحن كذلك لكى نتأمل صورتها الوادعة فى مرآتها الصافية ونشاركها أحلامها وآمالها المتفائلة !



١٢٥.

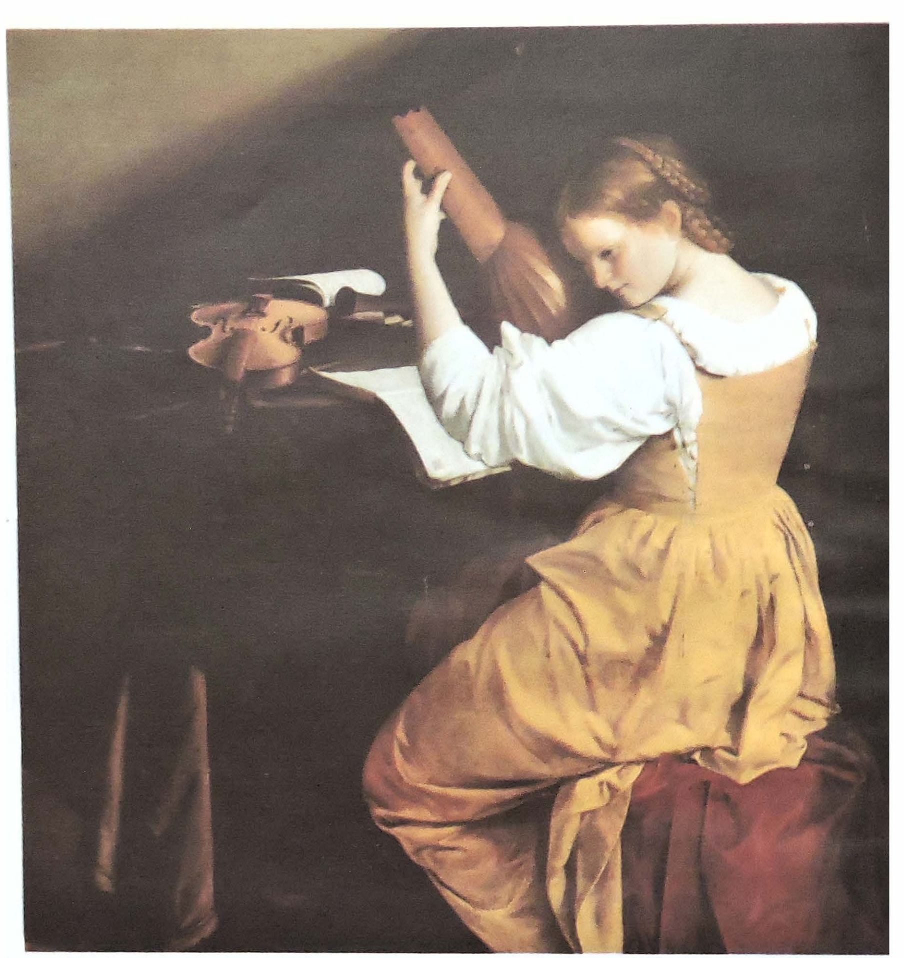
العازفة

فى استعراضاتنا لمدارس الفن الشهيرة فى التاريخ ، لم نتوقف أمام مدرسة بريطانية تمثل حركة أو ظاهرة شاملة تلقى بإشعاعاتها وتأثيراتها على مسيرة الفن العالمى ، كما حدث فى إيطاليا أو بلاد الشمال الأوروبى (هولندا وبلجيكا) أو فرنسا مثلا . ذلك لأن الفن البريطانى ــ كعادة الإنجليز أنفسهم ــ فن محافظ ملتزم فى كل مراحل التحولات الكثيرة التى غيرت مسار الفكر العالمى عبر عصوره المتعاقبة . حتى أن التيارات التى كانت تهب على الجزر البريطانية من الشمال أو الشرق أو الجنوب .. لم تستطع أن تعصف بتقاليد الفن البريطانى أو تطبعه بأساليبها المستحدثة إلا بقدر ضئيل ، بينما يواصل الطابع البريطانى تطوره الطبيعى فى تمهل واستيعاب وتغيير بطىء لا يكاد أن يحس .. وبالتالى ، لم يظهر فى إنجلترا ما يمكن أن نطلق عليه ثورة فنية أو تحويل شامل ينتج عنه مدرسة جديدة تفاجىء حركة الإبداع العالمى مثلما حدث فى إيطاليا وبلاد الشمال وفرنسا مثلا ، ومن الملاحظ أن الصور الشخصية تمثل جانبا أساسياً عند معظم الفنانين الإنجليز .. إن لم تمثل الجانب الأكبر من إبداعاتهم .. حتى إننا رأينا أن فنانى القرن الثامن عشر العظام من أمثال وليام هوجارت وتوماس هدسون وجوشوا رينولدز وتوماس جونسبرو وجورج رومنى .. وغيرهم . كانوا من فنانى رسم الأشخاص ، وهم الذين سجلوا شخصيات عصرهم فى لوحات خالدة تعمر بها المتاحف وصفحات التاريخ ، ومن العسير أن نتذكر أى شخصية بريطانية لعبت دوراً فى السياسة أو الفكر أو المجتمع .. إلا ونجد لها صورة من أعمال هؤلاء الفنانين العظام . وظلت هذه الاهتمامات الفنية سائدة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، رأينا بعدها تطورا فى أساليب الأداء (التكنيك) فرضته التيارات الجديدة فى مستحدثات علوم البصريات والاكتشافات الجديدة فى تحليل ضوء الشمس وألوان الطيف فيما عرف بالمدرسة الانطباعية التى انبثقت من باريس حينذاك ، ولو أن التغيير كان متزناً وملتزماً إلى حد كبير فى بريطانيا بعكس ما حدث فى فرنسا من التغيرات الجذرية التى أحدثت انقلاباً فكرياً شاملا بين فنانى العالم أجمع حيث تطور سريعا وقاد إلى فنون القرن العشرين .

وإذا كنا نتحدث عن هذا الالتزام فى الفن البريطانى فى القرون الحديثة .. فما بالنا بالقرنين السادس عشر والسابع عشر ؟ كان الفن فى إنجلترا وقتها فناً نبيلا تتم صياغته عن إخلاص الفنان وسمو مكانه ومكانته فى المجتمع ، و لم يسخر لخدمة هدف واحد كما حدث فى فن عصر النهضة الذهبى الإيطالى .. و لم يوظف لخدمة البلاد كما فعل الفنانون الفلمنكيون فى دول الشمال الأوروبى فى هولندا وبلجيكا ..

ولكن الفنان فى بريطانيا كان سيد الموقف .. يرسم ما يحلو له ، ويحلق فى جماليات الحياة من حوله ، ويختار ما تتفتح له بصيرته ووجدانه . وكانت سيدات المجتمع وقادته وعناصره البشرية المرموقة .. هى المنهل الإبداعى للفنانين ..

ولوحة اليوم هى من روائع الفن العالمى البريطانى .. كما أنها من أشهر اللوحات التى تطالعنا دائماً كنموذج راق للجمال الذى يبعث على التأمل والإعجاب الهادىء فى غير إثارة ولا انفعال .. رسمها الفنان أوراتسيو جنتليتشى فى عام ١٦١٠ وأسماها : العازفة الفاتنة . وربما يلفت اسم الفنان أنظارنا ، فهو اسم إيطالى وليس اسماً بريطانياً .. بينما حديثنا عن الفن البريطانى ، وهذه حقيقة .. فقد ولد الفنان فى مدينة



زا فى إيطاليا عام ١٥٦٣ وتلقى دراسته الفنية فى روما ولذلك يظهر جليا طابع فن عصر النهضة على تفاصيل لوحة) ، وقد مارس عمله الفنى فى مطلع شبابه فى روما جنوا وتورينو .. ثم هاجر إلى باريس .. وعندما ذاعت شهرته كفنان مرموق ، قصد لندن واستقر فيها وأصبح واطناً بريطانياً . منغمساً فى التقاليد السائدة فى المجتمع .. عاش حياته كأحد الفنانين الإنجليز فى عصره ، حتى توفى لندن ١٦٣٩ .

والعازفة الفاتنة هى ابنة الفنان أوراتسيو ، واسمها تمسيا ، وقد رسمها الفنان بعاطفة أبوية جياشة تنضح بالحب السامى فى غير تكلف أو ابتذال . بل أضفى عليها براءة وجمالا وجواً بديعاً تتألق إيحاءاته الملهمة من خلال هذه الرموز الشاعرية بين الأنغام والألحان والسكينة والتأمل الإبداعى الرفيع . وقد عرفت أرتمسيا فى التاريخ بأنها كانت واحدة من ألمع نجوم المجتمع البريطانى فى أوائل القرن السابع عشر ، وأكثرهن ثقافة وتألقاً فى المحافل الفكرية . والمجتمعات الراقية . ولننظر سوياً إلى هذه اللوحة . ولنتأمل تلك المعانى التى فجرت ينابيعها لمسات الفن الرقيقة الحانية الدافئة !

أمجاد الأندلس .. وأطلال الفردوس المفقود



منارة الإسلام على بحر الظلمات .. وإشراقة النور على جبين التراث الحضارى وبسمة الأمل على شفاه الفكر والإبداع .. تلك كانت الأندلس !

الجامعة العربية .. اتحاد المؤرخين العرب .. المهتمون بالتاريخ والفنون الإسلامية فى العالم العربى .. استيقظت فى وجدانهم ذكرى الأمجاد الغابرة ، وتألقت بصائرهم بإشعاعات قرطبة وروائع غرناطة وأطلال الحمراء المعجزة ، فبعثوا الروح فى التاريخ البعيد ، وهفت نفوسهم إلى أرض الأجداد فى ربوع أسبانيا ، فعقدوا الاجتماعات وأعدوا الأبحاث والبرامج ، أملا فى إقامة مهرجان عالمى لآثار الأندلس على غرار « مهرجان العالم الإسلامى » الذى أقيم فى لندن فى صيف عام ١٩٧٦ .

لقد كان مؤتمر لندن مهرجاناً عربياً إسلامياً لم يحدث من قبل ، وكان فى روعته وتنظيمه طفرة وصلت إلى قمة الإخراج ! حتى أننا رأينا « قسم النشر » فى هذا المهرجان يخرج للعالم نحو سبعين كتاباً ومجلداً ضخماً عن الفنون العربية والإسلامية عامة ، فى أرق ثوب من الأناقة والطباعة الفاخرة واللوحات الملونة والأبحاث العميقة المتأنية فى كل فرع من العلوم والآداب والفنون .

ونعود لاتحاد المؤرخين العرب لنرى هذه البواعث الخيرة التى حدت بهم للعمل على إقامة « مهرجانات الأندلس » فى غرناطة ، وكان محدداً لها عام ١٩٧٩ ، ثم أجلت إلى .. العام التالى وبعد اجتماعات رئيسية ، واجتماعات فرعية متخصصة ، تفرعت بدورها إلى لجان فنية وعلمية .. عقدت على أرض « الدوحة » ، عاصمة قطر وهناك على الأرض الأوروبية فى أسبانيا ، تأجلت إلى عام ١٩٨١ ، كانت النيات خالصة ، والعزيمة صادقة ، وقابل المسئولون الأسبان هذه النزعات الانسانية بحماس مقابل ، وشاركوا فى كل الاجتماعات والندوات ، وبعثوا بعلمائهم يحملون الأفكار ويعرضون المساهمة إلى أبعد الحدود : إعداد

القاعات ، واختيار المكان والزمان المناسبين ، وعرض النفائس وكنوز الآثار ، والدعاية العالمية اللازمة ، وتقديم الدعوات والمعلومات وأن يفتتح ملك إسبانيا هذا المهرجان .. إلى آخر هذه الاستعدادات التى تليق بالحدث الكبير . وأخيراً تأجل مشروع المهرجان إلى أجل غير مسمى و لم يكتب له أن يخرج إلى حيز التنفيذ وكان العائق الوحيد هو التمويل ! ولنا أن نصدق هذا وإن كان من الغرابة بمكان !

ونرنو بأبصارنا إلى كنوزنا العربية .. هناك فى ربوع أسبانيا ، ونتمثل أجدادنا الأفذاذ وهم يسطرون ملاحم الحضارة المتألقة فى القرون الوسطى ، وشعوب أوروبا من حولهم ترزح تحت أغلال الخشونة والبداوة .. وترتسم فى مخيلتنا تلك الصورة النورانية الرائعة : غرناطة .. مركز الاشعاع الفنى وميدان المبتكرات العلمية والفكرية الرفيعة ، تنهل من معينها ممالك الفرنجة وأمصارها مشدوهين لهذه العبقرية العربية الإسلامية الرائدة !

صارت أياماً فى طى التناسى .. وأطلالا لا نملك إلا التباكى عليها !



رحلة الخيال

ولكى أحلق فى أجواء الكر والفر وأعايش أيام العرب فى الأندلس ، ولكى أكتب بحثاً عن الأندلس والفن الإسلامى عامة ، لم أستطع أن أكبح جماح قلمى من الخوض فى كل شىء : الفن والتاريخ والفكر والحياة .. لأن للأندلس فى وجدانى مكانة ذات شئون وشجون ؛ فمنذ عدة شهور ، كنت مكلفاً من إحدى المؤسسات السياحية العالمية بأن أعد نفسى لرحلة أندلسية طويلة إلى أسبانيا ، أعيش فيها بين الأطلال ، محلقاً بخيالى بين أطياف القرون الغابرة ، لأتمثل الماضى وأعايشه معايشة كاملة ، ثم أفرز هذا الانفعال والتفاعل على صورة مجموعة من اللوحات الفنية ، يضمها معرض خاص يجوب أرجاء المعمورة باسم هذه المؤسسة السياحية وفنادقها الشهيرة . وأخذت أدرس كل ما أتيح لى من معلومات واطلاعات فى هذا المجال .. وكانت الحصيلة التى خرجت بها هى المتعة الوجدانية التى حظيت بها وأنا أستعيد أمجادنا ومآثرنا فى تلك البلاد ! وكأنى بى أسير فى ركاب طارق بن زياد وهو يعبر المضيق الفاصل بين أوروبا وأفريقيا فى العام الثانى والتسعين للهجرة .. ثم أعود لأرافق موسى بن نصير وهو يعد العدة فى القيروان ويلحق بمن سبقوه ليتم الفتح وتتركز دعائم الحكم الإسلامى فى الأندلس .

ثم أسرح بخيالى لأرى اجتماعات الفاتحين من المولدين والمستعربين مع الأمراء الأسبان يوقعون معاهدات التعايش والسماحة الإسلامية ... وأجوب الأقاليم والمرتفعات والوديان الخضراء ، بإعزاز وخيلاء ، وقد فرض المسلمون سيطرتهم على جل المملكة القوطية الجميلة بأنهارها السائغة وخمائلها الفيحاء التى تغنى بها ابن خفاجة :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم
ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعدها أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

وكان لزاماً على أن أقفل راجعاً إلى بعيد : إلى الشرق العربى فى الجانب الآخر لأشاهد مأساة الأمويين على أيدى العباسيين ، وأن أتسلل مع عبد الرحمن بن معاوية لأكون فى معيته وهو يفر مع زوجته وابنه ، قاصداً مصر ، ثم يتجه غرباً حتى يستقر به المقام فى المغرب .. وأسبقه إلى الأندلس لأفاجأ بصراعات الأخوة من العرب والبربر .. وتحدث لعبة استقطاب القوى وإهدار الطاقات فى التناحر والشقاق ..

فيجدها الأمير الأموى عبد الرحمن .. فرصة سانحة ليباغت هذه الجماعات المتخاصمة ، وينقض عليها ، وينفرد بالنفوذ والسلطان ، فيجمع الشتات ويوحد الشمل ، ويسترجع مملكة أجداده . وتدين له ربوع الأندلس ، ويلقب بصقر قريش ، أو بعبد الرحمن الداخل ، لدخوله قرطبة فى العاشر من ذى الحجة عام ١٣٩ هـ، وتصبح قرطبة عاصمة لملكه.

وتتوالى الأحداث الجسام ، ويسرح بى الخيال فيجسد لى كفاح ابنه (هشام) لإخماد الفتن بعد وفاة أبيه .. وفى عهد خلفه عبد الرحمن الثانى يعود الاستقرار مرة أخرى ، لتتألق الأندلس بعد ذلك فى عهد عبد الرحمن الثالث ، الملقب بالناصر وهو أول من أحيا الخلافة الأموية ، وأصبح الخليفة عبد الرحمن الناصر رمزاً لهيبة البلاط الأموى العريق ، وقد أحاط نفسه بهالة من المجد والعظمة ، وفى حكمه ، عم الخير ، وازدهرت الفنون ، وأصبحت قرطبة مركز الإشعاع فى أسبانيا وأوروبا كلها . ويأتى الحكم بن عبد الرحمن ، ليصل الفنانون فى عهده إلى قمة الإجادة وغاية الابتكار ..

أخذت أقرأ .. وأقرأ .. عن الأندلس ، وأعيش فى أطياف القصص الجانبية على هامش التاريخ فهذا ابن أبى عامر المعروف بالمنصور ، رجل بسيط رقيق الحال ، يصل به طموحه وتطلعاته إلى كرسى الخلافة بعد وفاة الحكم بن عبد الرحمن ، وما كان إلا تابعاً عهد إليه الخليفة برعاية ابنه هشام الثانى ، ولكنه نجح فى استرضاء (الملكة صبح) التى أخذت تستهويه ، فارتقى من منصب إلى آخر حتى أصبح رئيساً للشرطة ، ثم استبد بأمور الدولة ونصب نفسه على حكم الأندلس .: تاريخ يشبه الأساطير !: فى شبابه ، كان يجلس يوماً فى إحدى حدائق قرطبة بين جمع من رفاقه الطلبة ، وإذا به يتطلع إلى الفضاء .. ثم يفيق لينادى فى أصحابه : أعاهدكم أن يأتى يوم أكون فيه سيد هذا البلد ، وسخر الفتيان منه ، ولكنه أضاف ببرود : كل واحد يقترح الوظيفة التى يرغب فيها ، وسينالها عندما أصبح الخليفة ! وقال أحدهم متهكماً : أوصيك أن تأمر يومها بأن يدهن جسمى عسلا ، ودع البعوض يلسعنى ثم مر بطرحى على بطنى فوق ظهر حمار ، وطف بى فى أزقة قرطبة !

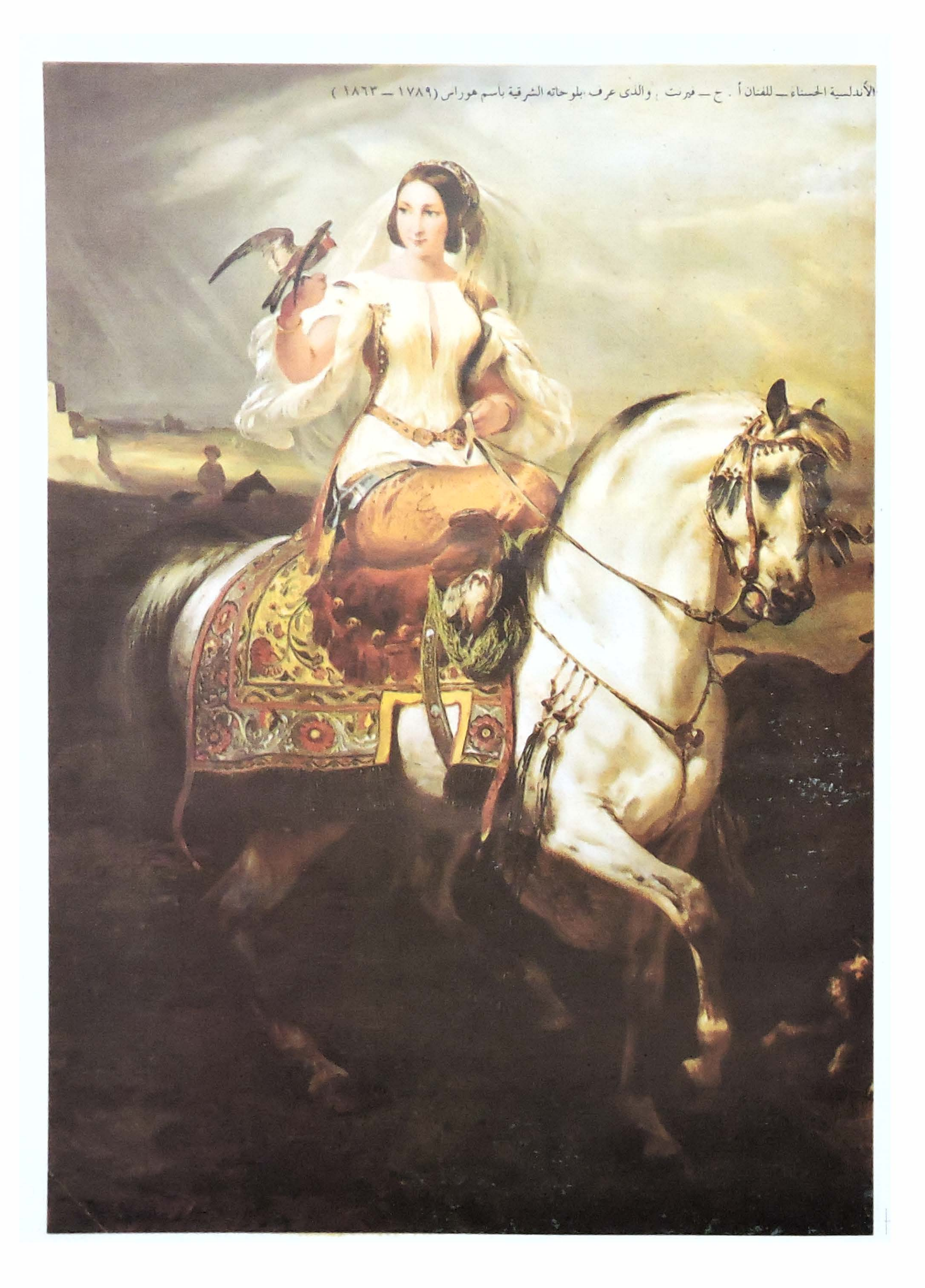
وتمر الأعوام بأحداثها ومفارقاتها ، ولم ينس ابن أبى عامر مطلب صديقه القديم ، فأمر بتنفيذ هذه (الرغبة) الأخوية !

حكايات .. وحكايات ، وقصص زاخرة بالطرائف الشيقة ، إنها لوحات حية فى متحف التاريخ !

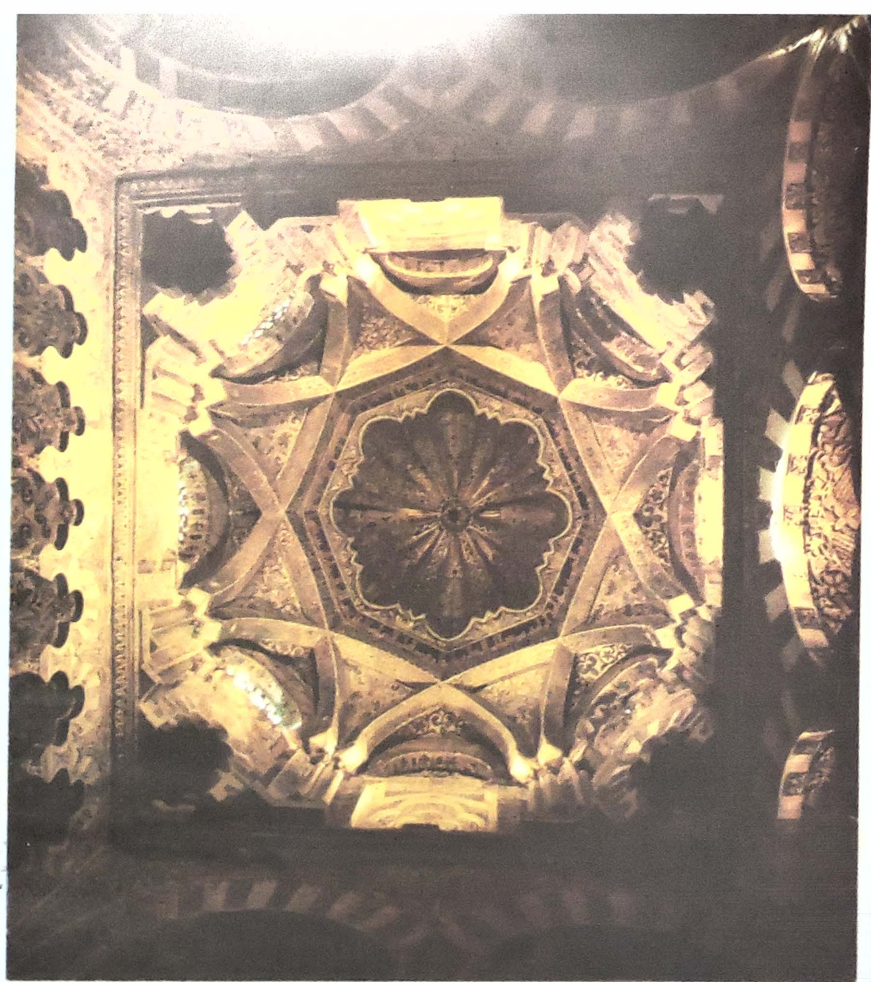
وأعود إلى مسرح الأحداث الجسام فى مسيرة الأندلس : فهذه بوادر الانقسام من جديد بعد عهد المنصور ، تتسع وتتفاقم حتى تنتهى الدولة الأموية بعد مقتل هشام الثالث عام ٤٢٢ هـ .

ولننتقل معاً إلى الفترة الثانية من حياة الدولة الأندلسية : فترة الحكم المغربى الأسبانى . وهى التى أعقبت تطورات كثيرة ، ليس هذا مجالا لسرد دقائقها ، فلنعايش حكام الطوائف والمرابطين والموحدين .. ولا بد من حركة مكوكية دائبة لنوالى استطلاع الأخبار بين المغرب والأندلس : لقد اختلطت العادات والتقاليد والفكر والثقافة ، فهذه الطرز المغربية فى الفن والعمارة تغزو الأندلس .. ومن إسبانيا تعبر المؤثرات الأندلسية والأوروبية إلى شمال أفريقيا .. وتزدهر الحياة .. وتنتشر مجالس الشعراء وسهرات الأنس فى ربوع البلاد .. وما أحلى الموشحات الأندلسية الحالمة وإيقاعاتها الشجية .. ومن لا يفتتن بشاعرة التحرر والحب والخيلاء « ولادة » ابنة الخليفة المستكفى بالله وهى تشدو :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها
أمكّن عاشقى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها !



الأندلسية الحسناء ــ للفنان أ . ح ــ فيرنت ، والذى عرف بلوحاته الشرقية باسم هوراس (١٧٨٩ ــ ١٨٦٣)



قبة محراب مسجد قرطبة ـ بناها الحكم الثانى . وتعتبر إعجازاً فنياً من حيث تصميمها المعمارى الفذ ونقوشها المذهبة ـ وهى ـ بلا جدال ـ أروع سقف مزخرف فى العالم أجمع

وهذا ابن زيدون ، سابح فى الترف والنعمة ، منغمس فى اللهو ، متألق فى السهرات الأندلسية العابثة ، وقد هام فى حب « ولادة » ، ولكنهما افترقا بعد مكيدة مدبرة من الوزير ابن عبدوس الذى استأثر بحبها فآثرته على ابن زيدون فراه يعاتبها فى أسى :

أضحى التنائى بديلا عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
إلا وقد حان صبح البين صبحنا
حينا ، فقام بنا للحين ناعينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا !..

القمة والانهيار

ترف وسرف وسمر وسهر وفن وفكر .. وليل طويل

هامس ، تتردد فى أصدائه الموشحات الأندلسية الشهيرة ، وفى إحداها يقول « ابن اللبانة » :

فى نرجس الأحــداق
وسوسن الأجيـــاد
نبت الهوى المغروس
بين القنـــا الميـــاد
وفى نقـــــا الكافـــــــور
والمنـــــــدل الـــــرطب
والهودج الموزور
بالـــــوشى والـــــعصب
قضب مــــــن البللــــــور
حمين بالـــــــــــقضب
نـــــادى بها المهجـــــور
مـــــــــــن شدة الحب
أذابت الأشواق
روحــــــــى على أجساد
أعارهـــــا الطـــــاووس
مـــــــن ريشه أبــــــراد

صور رائعة مثيرة ، تنقب فى خيال الفنان لتنتقى من وجدانه درراً مبدعة !

إن مسيرة الأندلس طويلة .. طويلة ، وعثراتها فى عهودها الأخيرة كثيرة .. كثيرة ! فلنستحث الخيال لكى يعبر العوائق والكبوات حتى يستقر المقام فى غرناطة آخر شموع الوجود العربى فى ليل أسبانيا الطويل ..

غرناطة المجد الخالد والفن الرفيع ، وإعجاز العبقرية العربية : قصور الحمراء الأسطورية الرائعة .. متحف البذاخة والثراء والرونق والإبداع ..

وعلى مدى ثلاثة قرون كانت غرناطة مركز الإشعاع ومنهل العطاء العربى للتاريخ والحضارة .. ومرت أحداث .. وأحداث ..

وأخيراً ، كانت النهاية ، يوم أن خرج أبو عبد الله ، آخر الحكام المسلمين ، متجهاً إلى منفاه بجبال البشرة (فى فجر يوم ٢ يناير ١٤٩٢م) ، ونزاه فى انكسار مرير ، يسلم مفاتيح الحمراء إلى قائد جيوش فرديناند وإيزابيلا ، وقد تم زواجهما بدوافع سياسية للقضاء معا على دولة المسلمين) وقد وقف الفتى يلقى نظرة حسيرة على درة الأندلس — غرناطة — .. وعلى ثمانية قرون من أيام العرب المجيدة .. وعلى منارة الإسلام فى بحر الظلمات !! ففاضت عيناه بالدموع ، وتعنفه أمه الملتاعة وقد تصنعت الصرامة ورباطة الجأش .. وأنشدت فى إباء تقول :

إبك مثل النساء ملكاً مضاعـاً
لم تحافظ عليه مثل الرجـال !

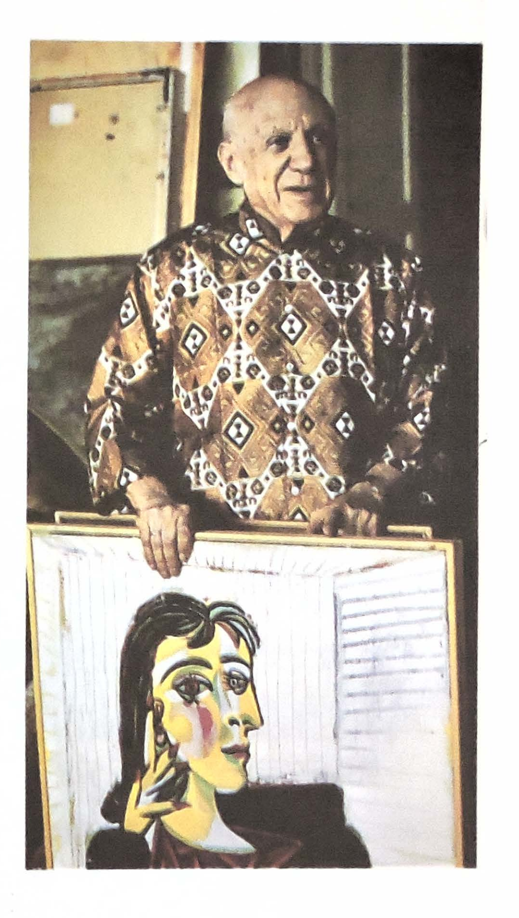
وهذا الموقع الذى شهد تلك الزفرة الأليمة ، مـازال يسمى : زفرة المغربى .

وإذا كانت (الدولة) قد انتهت من الأندلس ، إلا أن المسلمين الذين آثروا البقاء ، ظلوا متمسكين بدينهم ولغتهم برغم الوعد والوعيد ، واستبد الغضب بالأساقفة ، فأمر رئيسهم بجمع الكتب العربية وإحراقها فى الساحات العامة ، واشتد الضيق على الأندلسيين ، وأثقلت كواهلهم بالضرائب ، وتمادى الإسبان فى إهانتهم ، حتى اضطر معظم الفنانين والعلماء وكبار العائلات إلى الهجرة نحو بلاد المغرب . حاملين معهم مفاتيح بيوتهم ، وكانت فكرة العودة إلى الديار تداعب خيالهم فى كل حين . أما من بقى من المسلمين ، فقد أمر الإمبراطور فيليب الثالث عام ١٦٠٩ بطردهم .. وبهذا ، اندثرت البقية الباقية من الحضارة الإسلامية بالأندلس !

الفن الإسلامى والحضارة الإنسانية

عفواً ، لا بد من الإسهاب بعض الشىء فى حكاية الفن الإسلامى .. حتى نستطيع أن نقدر روائع الأندلس حق قدرها . فقد أقر معظم المؤرخين للفن الإسلامى والحضارة الإسلامية بوجه عام ، بأن أبرز سمات هذه الحضارة هو الفن . واستهل (برنارد لويس) رئيس الدراسات العليا بجامعة برنستون الأمريكية ، مؤلفه الضخم عن هـذا الموضوع بقوله : « إن أعظم منجزات الحضارة الإسلامية العظيمة هو الفن .. بلا منازع » ! ونرى مثل هذا القول لمفكر شهير معاصر هو عالم الآثار الإسلامية (رتشارد إتينجهاوزن) ، وغيرهما كثيرون !

ولذلك وجدنا سباقاً غريباً بين العلماء والأثريين — ومعظمهم من المستشرقين — لكى يعملوا قدر طاقتهم على إرجاع أصول الفن الإسلامى إلى غير العرب بل وإلى غير المسلمين ! فامتلات مؤلفاتهم بكثير من التحريف والتأويل المغرض لترسيخ مفاهيم وإيحاءات شتى بأن العرب الأوائل فى صدر الإسلام ومن قبله لم يكونوا مؤهلين لتذوق الفن أو الاهتمام به ، وبالتالى .. على ابتكاره . وقبل نصف قرن .. كان الميدان خالياً لهم لا يسمعون فيه إلا وقع أقدامهم وصدى آرائهم : فرأينا محاولات مستمرة من دول الغرب للوصول إلى أعماق حياتنا الفكرية ، ولكنها فى كثير من الأحيان لم تكن خالصة لوجه الله والفن والتراث ، بل تعدته إلى أغراض الاستيعاب والسيطرة والنيل من العروبة والإسلام ، كما تسلل فريق منهم إلى مناصب فنية على أكبر جانب من الخطورة مثل (كريسويل) الذى كان مديراً لمعهد الآثار الإسلامية فى القاهرة بعد أن كلف بتأسيسه عام ١٩٣٣ ، وتربع على عرش البحث والتأليف فى مجال العمارة والفن الإسلامى ، دون رقيب أو مراجعة ، ودون أن يجد من يقول له فى العالم الإسلامى — والعربى بوجه خاص — : أن هذا افتراء ! وأكد كريسويل هذه الاتهامات وعزف على نفس النغمة التى صاغ أوتارها من سبقوه . ونراه فى مؤلفاته يعمل جاهداً على إنكار أى فضل للعرب فى قيام الحضارة أو ابتكار الفنون الإسلامية ، بل ويصفهم بالتخلف والبداوة ، وأنهم لم يعرفوا من العمارة سوى سكن فى خيمة سوداء ، ثم مثوى فى قبر تحت رمال الصحراء ! وحتى سكان الحضر ، قال عنهم إنهم لم يعرفوا شيئاً عن فن العمارة ، وكانت بيوتهم من نوع قبيح من اللبن وجذوع النخل لا تزينه أية لمسة فنية ! وإذا تصادف وعثر على أى أثر فنى ، فلا بد وأن يكون مستورداً ! وكريسويل ، كان فى الأصل ضابطاً إنجليزياً عمل بسلاح المهندسين البريطانى فى الشرق الأوسط .. وعاش فترة فى الأردن .. ثم استقر به المقام فى القاهرة ، ليترأس معهد الآثار الإسلامية .. وكان متأثراً بفكر من سبقوه من هؤلاء المستشرقين ، ومن أهمهم راهب يدعى (لامانس) كانت مؤلفاته تتفجر حقداً على العرب حينما يصف أغنياءهم بقوله الذى قرأه العالم حينذاك وحتى اليوم :



بيكاسو .. إنه إسبانى .. والإسبان عرب !

« إنهم ما كانوا يهتمون إلا بالطعام وسعة القدور ، أما مساكنهم فلم تعرف الفن، وكانوا يلجأون إلى صناع أجانب إذا أرادوا ترميم الكعبة ! » .. ومن هذه الأمثلة الظالمة ، نقرأ الكثير .

جذور الفن الإسلامى

أما الأخطر من كل ذلك ، فقد أرجعوا أصول الفن الإسلامى إلى الفن الساسانى ، وأكدوا أن الفن الساسانى فن فارسى خالص ! وهذه فرية لها ما يدحضها ؛ فلو أمعن هؤلاء ، بتجرد وموضوعية ، فى دراسة الدولة الساسانية أيام الفتح الإسلامى ، لوجدوا أن الغساسنة ، وغيرهم من المناذرة والجاليات العربية الأخرى فى بلاد ما بين النهرين ، كانت لهم اليد الطولى فى رسم ملامح الفن الساسانى الذى قيل إنه أصل الفن الإسلامى . وكانت (المدائن) عاصمة الدولة الساسانية موجودة على أرض العراق وليست على أرض فارس . ولعل التاريخ قد ساهم من تلقاء نفسه فى تفنيد مزاعم المغرضين : فالحفائر التى كشفت عن الآثار المنحوتة فى الصخر بمنطقة (تبوك) وما فى شمالها حتى (البتراء) فى جنوب الأردن ، قد أثبتت بالدليل القاطع عن وجود فن عربى صرف ، وطراز عربى متطور من العمارة المحلية النابعة من قلب المنطقة العربية ، وأنها لا تمت بصلة مباشرة إلى الطرز المعمارية السابقة ، كما أنها تضاهى فى عراقتها وثرائها الجمالى ، الطابع الرومانى الشهير . وفى حفائر (مدائن صالح) ظهرت آثار رائعة ، اجتمعت فيها عدة أساليب فنية منها الفرعونى ، والآشورى ، والرومانى ، والإغريقى .. وغيرها ، ولكنها صيغت كلها فى قالب محلى عربى يرجع إلى حضارات عربية أصيلة سابقة لظهور الإسلام .. وهذا بحث له مجالات مستفيضة أخرى ، ولكننا نخلص إلى أن العبقرية لها وجود من قديم الزمن ، و لم ينضب معينها فى يوم من الأيام ! وبظهور الرسالة المحمدية ، انصاع الفنان — بإيمان راسخ وتجرد — لتعاليم الدين الحنيف ، وابتعد عن التجسيد والصور الآدمية الطبيعية كما فى المدارس الغربية ، واستعاض عنها بالابتكار والتحوير الزخرفى المستمد من أشكال طبيعية ، ولكن بنظرة خاصة وبأسلوب محور ، بل شديد التحوير ، ليبعدها عن المحاكاة المباشرة للأشكال الطبيعية .. وبهذا تكوّن الفن الإسلامى المعجزة بملامحه المميزة ، وأصبح فناً ذهنياً يحكمه المنطق والمقاييس الروحية والعقائدية ، ولكنه فى نفس الوقت ينطلق إلى عوالم إبداعية سامية فى التشكيل والتلوين والدقة والزخارف الهندسية اللامتناهية ، ولعل خير شهادة معاصرة على عبقرية هذا الفن الرفيع ، قد جاءت على لسان الفنان العالمى (ماتيس) الذى يطلق عليه لقب (أحسن الملونين) إذ يقول : « إننى ما كنت أصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن درست الفنون العربية الإسلامية فى معرض الفن الإسلامى الذى أقيم فى برلين عام ١٩٠٥ » .

وشهادة أخرى جاءتنا على لسان الكاتبة الأمريكية ، مؤرخة الفن المعاصر الشهيرة (جرترود ستاين) فى معرض حديثها عن بيكاسو : « إن أروع مراحل بيكاسو الفنية هى المرحلة التى تأثر فيها بالفن الإسلامى ، وليس هذا عجيباً ؛ فبيكاسو أسبانى ..، والإسبان عرب » !!

وكانت الفرصة الذهبية لفنانى الفتح العربى لأسبانيا — بعد أن استقرت الأمور فى الأندلس — لأن يدعوا هذا التراث الرائع فى متحف العالم الكبير .. هناك على القارة الأوروبية ! وذهل العالم — ومازال — بجامع قرطبة .. وقصور غرناطة ! وثمانية قرون من الفكر المتطور والإبداع الرائد فى شتى المجالات .

والفن الأندلسى — وهو فن عربى خالص — كان درة الإبداع الإسلامى بكل شموله وتخصصاته الذهنية والتطبيقية والوجدانية .. ولا غرو أن تصبح الأندلس مركز الإشعاع الفكرى فى العالم لقرون طويلة !

وقد حظى فن الأندلس بمذاق وعبق خاص . لأن أسبانيا جعلت من آثارنا الفنية حالياً على أرضها متحفاً كبيراً يقصده الزوار من أنحاء المعمورة ، فرسخت فى الأذهان كلمة الحق عن العبقرية الفنية فى الأندلس ، لتظل قبلة التراث وكنز الفنون الرفيعة فى العالم أجمع ! وقد يكون هذا الاعتزاز بتراثنا نابعاً من الإحساس بعقدة الذنب ، لما اقترفه الإسبان منذ نحو أربعة قرون ، من التنكيل بأصحاب التراث .



رسوم آدمية فى سقف قاعة الملوك .

بين عهود الذروة والتدهور

وهناك بعض العهود الزاهرة التى تألق الفن الإسلامى فيها أكثر من غيرها فى الأندلس .

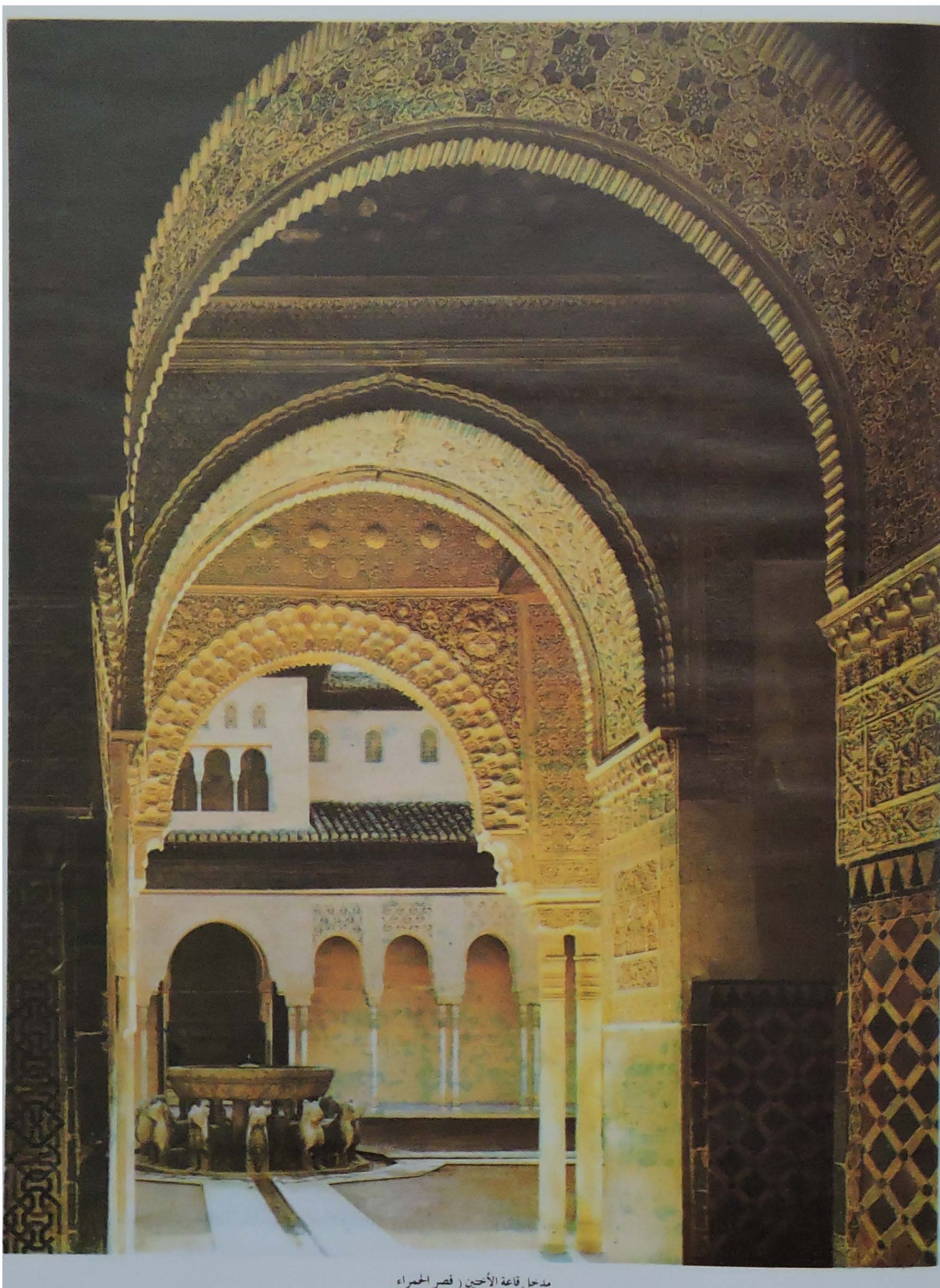
فلم تهنأ البلاد وتزدهر الفنون إلا فى عهد عبد الرحمن الثانى ، الذى دعم حكمه فى الأندلس واعتنى بمظاهر الرق والحضارة ، ليواكب وينافس حضارة بغداد عاصمة العباسيين ، وكانت تعيش عصرها الذهبى آنذاك وتسطع منها إشعاعات الفن على كل البلاد الإسلامية .. ومن بعده .. جاء عبد الرحمن الثالث (الناصر) .. لتبلغ الأندلس فى عصره أوج تألقها .. وقد ذكر المقرى :

« إن ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنه الملوك ، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية » !

وبلغ سكان قرطبة فى عهده أكثر من نصف مليون ، وبلغت الفنون الأندلسية غاية رونقها ونافست بغداد والقيروان

وفى عهد الحكم الثانى — وكان مولعاً بالفن — عاش الفنان أهنأ أيامه ، كما ازدهرت كذلك باقى فروع الفكر والمعرفة . وقد ذكر المقرى أن عدد الفهارس بلغ فى أيام الحكم الثانى أربعة وأربعين فهرساً فى كل فهرس عشرون ورقة ، كما بلغ عدد الكتب أربعمائة ألف كتاب ، ثمن الكتاب الواحد منها ألف دينار من الذهب ، وكان يصدر فى كل سنة ستون ألف مخطوط !

وظهرت بوادر الانهيار بعد أن وصل الفن والفكر إلى الذروة .. إلى أن خلع هشام الثالث عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ، وانتهت معه الدولة الأموية فى الأندلس . وتوالى على الحكم ملوك الطوائف (من العرب والبربر) .. وبدأوا فى اقتناء التحف وتشجيع الابتكارات وبناء القصور .. والحياة المترفة اللاهية .. وظهرت الموشحات فى حفلات السمر .. إلى غير ذلك من مظاهر الحياة الرغدة .. ونشط الفن فى أيام الطوائف .. حتى قطع دابرهم يوسف بن تاشفين قائد جيوش دولة المرابطين فى المغرب وبسط نفوذه على جميع بلاد الأندلس .. وبهذا بدأ حكم المرابطين .. وظل نحو ستين عاماً .. ثم انتقلت السلطة بعد ذلك إلى دولة الموحدين وهم



مدخل قاعة الأختين (قصر الحمراء

سكان جبال الأطلسي .. وخاض الموحدون كثيراً من الحروب ..

وعاصرت الحروب الصليبية فترة من حكم الموحدين ، وظهر القائدان العظيمان : صلاح الدين الأيوبي في المشرق ، وعبد المؤمن بن على بالمغرب ، وهو الذى خف إلى الأندلس ليحميها من الهجمة الصليبية الشرسة ، فدانت له بعد حروب بطولية . واقتسم الموحدون فيما بينهم ولاية الأندلس .. وازدهرت الفنون فى عهدهم ازدهاراً ملموساً .

وظهرت ملامح الفن المغربى الأسبانى واضحة بعد تقارب الثقافتين ، بل واندماجهما تقريباً : فبينما كانت الجيوش المغربية تعبر المضيق لنجدة أهل الأندلس من حين لآخر ، نجد أن الفن الأندلسى يغزو بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها ويختلط بالفن المغربى ، ليظهر فى النهاية فن موحد له طابع خاص هو ما يطلق عليه الفن المغربى الأسبانى .. أو المغربى الأندلسى . وكان هذا الفن يتأثر بدون شك — كسادا أو ازدهاراً — حسب الأوضاع السياسية .. لذلك نجد أن الفن قد عانى من التعثر والكساد بعد هزيمة الموحدين عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م على يد بنى حفص الذين تلقبوا بالخلافة حين ذاك .. ثم قامت عليهم الأندلس فطردوا منها وانتهت دولتهم بسقوط مراكش عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م .. وخلا الميدان تقريباً للمسيحيين المتربصين بالحكم الإسلامى فى الأندلس .. وأخذوا يسجلون النصر تلو النصر .. ولم يبق للمسلمين إلا الرقعة الصغيرة على البحر .. وهى التى تولى الدفاع عنها ملوك غرناطة قرابة قرنين ونصف من الزمان .. فصارت غرناطة فى مهب الريح وشهدت الصراعات والنزعات الدامية .. واندلعت الحرب عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م بين ابن الأحمر وبنى مرين وبسط ابن الأحمر نفوذه على غرناطة ، وجاهر بنو مرين ببسط نفوذهم على جنوب الأندلس .. والأعداء فى كل مكان حولهما يتربصون ويخططون لاقتلاع الحكم الإسلامى من جذوره .. ولكن غرناطة استطاعت أن تهنأ بالاستقرار والازدهار ، وبخاصة أيام حكم يوسف الأول ومحمد الخامس ، وهما من حكام المملكة النصرية .. وفى فترة حكمهما تم بناء قصور الحمراء الرائعة ، وجنة العريف المجاورة لها . ولكن الأمور تردت بعد ذلك تحت وطأة الحرب الأهلية التى كان حكام قشتالة والأرغون يغذيانها ويشعلان أوارها كلما هدأت . وتوقفت المساعدات المغربية ، وبسط البرتغاليون نفوذهم على شواطىء المحيط الأطلسى .. ولم يبق أمام أهل الأندلس إلا أن يعتمدوا على أنفسهم . واستعد الإسبان لحرب فاصلة ، وفروا لها الأموال والآلات الحديثة والخطط العسكرية ، فحاصروا المدن وحرقوا الزرع وقطعوا الطرق وعزلوا السكان عزلة تامة .. حتى سقطت البلاد فى أيديهم .. فى فجر يوم ٢ يناير ١٤٩٢ .

الأندلس فى عالم الإبداع

ويعتبر جامع قرطبة الكبير الذى شيده عبد الرحمن الأول من أروع العمائر الإسلامية ، وكان تصميمه مستمدا من المسجد الأموى بدمشق وهذا أمر طبيعى للأمير الأموى عبد الرحمن ، الذى كان يتغنى بالوطن الأصلى ويناجيه فى أشعاره ، وهو على قمة الحكم فى قرطبة :

أيها الراكب الميمم أرضى
أقر بعض السلام عنى لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى !

نعود للجامع الكبير فى قرطبة فنجده يحظى باهتمام بالغ من الخلفاء بعد ذلك ، فزيدت مساحته عدة مرات فى عهد الحكم الثانى ، كما أضاف عليه عبد الرحمن الثالث مئذنة رائعة عام ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م . والجامع يعتبر تحفة فنية ، وقد استخدم فى عمارته وزخرفته ابتكارات هندسية جديدة فى

القبة الموجودة فوق المحراب ، حيث قسمت جدرانها إلى أشكال ثمانية ورباعية متقاطعة ، ونقشت بالزخارف النباتية والكتابات الكوفية فى توافق رائع .

وشيد الحكام كذلك قصرا للخلافة فى قرطبة ، جشدوا فيه كما هائلا من النقوش والزخارف الملونة البالغة الدقة والإتقان . كما أثثوه بمئات من التحف ذات المستوى الرفيع . ومن أحسن القصور الأموية القصر الضخم الذى شيده الخليفة عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء قرب قرطبة . ومما يجدر ذكره أن الأساليب العباسية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت فى العالم الإسلامى ، لم تظهر فى فنون الإندلس ، مما يدل على استقلال الشخصية الأندلسية .

التحف العاجية

ومن أحسن ما أبدعته عبقرية الفنان الأندلسي التحف المصنوعة من العاج ، وبخاصة العلب بمختلف أشكالها وأحجامها والتى تزهو بإقتنائها متاحف العالم حاليا . وتمتاز بأن الزخارف المحفورة بعمق تغطى أسطحها وغطاءها بالكامل وقد استمد الفنان وحداته الزخرفية من مظاهر الحياة الأندلسية ، فنقش موضوعات الطرب والصيد وغيرهما ، وكانت قرطبة هي مركز الإنتاج لهذه التحف العاجية . وقد عثر على بعض الأوانى الخزفية فى مدينة الزهراء وبعضها من النوع العالمى الشهير والمعروف باسم الخزف ذى البريق المعدنى ، وكانت قرطبة وبلنسية وملقا وغيرها من بلاد الأندلس تتفوق فى إنتاج هذا النوع من الخزف . وفى عهد خلفاء قرطبة ازدهرت كذلك فنون النسيج ، وبلغت المنسوجات الحريرية درجة عالية من الإتقان واشتهرت بنقوشها من رسوم الحيوانات والنباتات المحورة . وقد ذكر المؤرخ (الإدريسى) أن (المرية) وحدها كان بها ثمانمائة مصنع لنسيج الحرير الفاخر .

الفن المغربى الإسبانى

نفرق دائما من الناحية التاريخية بين فترة الحكم العربى الأول للأندلس فى عهد الدولة الأموية الغربية ، وبين فترة الحكم الثانى — بعد سقوط الخلافة الأموية — التى توالى فيها على الأندلس العديد من الحكام من أسر البربر حيث كان مركز حكمهم شمال أفريقيا ، وقد أسس هؤلاء الحكام عدة ولايات فى المدن الأندلسية حكمها ملوك الطوائف كما أسلفنا ، وتلاهم حكام المرابطين وبذلك انتقلت الزعامة السياسية إلى المغرب بعد أن كانت الزعامة للإندلس فى عهد الأمويين . وكانت الأندلس كلها — ما عدا طليطلة — تابعة لدولة المرابطين فى شمال أفريقيا . ومن هذا الاتحاد تكون الفن الأسبانى المغربى وهو الفن الأندلسى فى عهد الاتحاد . ومنذ عهد (يوسف بن تاشفين) ملك المرابطين ظل المغرب مركز القيادة السياسية ، ولم يفكر (الموحدون) — وهم الذين خلفوا المرابطين فى الحكم — فى أن يجعلوا الأندلس قاعدة لحكمهم ، وبذلك ، انتقلت الحضارة الأندلسية إلى بلاد المغرب ونتج هذا الفن الرائع الذى يعتبر خلاصة لحضارتين كبيرتين ، وهو الفن الإسبانى المغربى . وفى عهد أسرة بنى نصر التى انحصر نفوذها فى مملكة غرناطة بعد تردى الأوضاع وانهيار الممالك الأخرى استطاع بنو نصر أن يصمدوا ويستقروا بثبات فى غرناطة أكثر من مائتين وستين عاماً . وكانت عاصمتهم (الحمراء) بقصورها الأسطورية ، متحفاً للفنون الإسلامية المعجزة ! وازدهر الفن فى كثير من المدن الأخرى مثل إشبيلية ، ومراكش ، وفاس ، ولكنه بلغ ذروة تألقه فى غرناطة ، وظل كذلك حتى خرج آخر حكام الأندلس محمد أبو عبد الله من غرناطة ليدخلها قائد جيوش فرديناند وإيزابيلا عام ٧٩٧ هـ — ١٤٩٢ م .

المآثر الفنية الخالدة

كانت فترة الموحدين زاخرة بالأعمال الفنية الكبيرة وخاصة فى التشييد ، سواء فى المساجد أو القصور ذات المستوى المترف الرفيع . وفى عهد المرابطين ، زاد الاهتمام بواجهات المساجد ، فصارت زخارفها أكثر دقة وثراء



لوحة تسليم مفاتيح غرناطة

وفخامة ، وتعددت المساجد فى المدن الأندلسية وقد بنى معظمها على النمط المغربى الشهير بمآذنها المميزة ذات المدرجات المربعة ، ومن أشهرها مسجد طليطلة والمسجد الجامع بألمرية (وهو الذى تحول بعد ذلك إلى كنيسة سان جوان و لم يبق منه غير المحراب وجدار القبلة) ، كما نرى عدة مساجد فى بلنسيه ومرسيه وغيرهما من المدن . وفى مجال القصور الفخمة ، فقد أحاط ملوك الطوائف أنفسهم بمظاهر الأبهة والرفاهية وتنافسوا فى تشييد القصور الفخمة فى إشبيلية وطليطلة وسرقسطة .. وزينت معظم جدرانها — من فرط البذخ — بألواح المرمر المنقوش بالزخارف المحفورة الرائعة . أما المرابطون ، فكانوا أكثر زهداً وتديناً ، فلم يهتموا ببناء القصور .. وخلفهم حكام الموحدين ، فتفوقوا على ملوك الطوائف فى مظاهر الترف ، وتغالوا فى بناء القصور وتزيينها بأفخر الأثاث والرياش واقتناء التحف الثمينة .

وفى عهد بنى نصر (مملكة غرناطة) تم إبداع الدرة الخالدة ، ووصل التفوق إلى ذروته .. فى قصر الحمراء الرائع !

قصر الحمراء .. ذروة الإبداع

أنـــا تـــاج كهـــلال
أنـــا كـــرسى جمال
ينـــجلى الإبريـــق فيـــه
كعـــروس فى اختيـــال
جـــود مولانـــا ابـــن نصر
قـــد حبـــانى بالكمـــال

(من كتاب طيقان الأبواب) للمقرى .

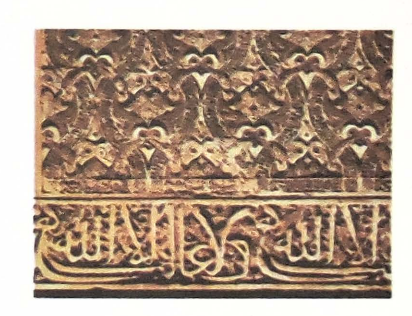
اشترك فى تشييد قصر الحمراء ثلاثة حكام هم : أبو الوليد إسماعيل ، وابنه أبو الحجاج يوسف الأول ، ثم أضاف خلفه محمد الخامس توسيعات وإضافات أخرى . ويتكون القصر من ثلاث مجموعات يتوسطه فناء مركزى اشتهر باسم بهو السباع وهو أشهر جزء فى القصر كله حيث تتوسطه نافورة على هيئة حوضين من الرخام الثمين .. أسفلهما يمثل القاعدة والآخر (العلوى) أصغر حجماً ومحمول على اثنى عشر أسداً . وتكسو الجدران طبقة من الجص مغطاة بالنقوش والزخارف والكتابات العربية . وكان هذا الجزء مخصصاً للحريم .. لا يدخله إلا السلطان وأسرته .

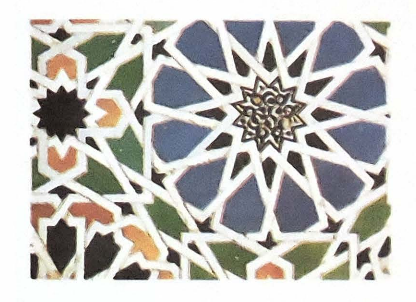
ومن أجمل مبانى قصر الحمراء بهو الريحان ، مركز المقر الرسمى ، وأفخم قاعاته قاعة (الأختين) المربعة الملحقة بالحديقة الخاصة . كما توجد الحمامات الملكية متعددة الأحواض .. كلها تغطى بالنقوش التى تعتبر قمة فن (الأرابيسك) فى إبداعات الفنان العربى المسلم . ويقع بالقرب من هذا القصر ، بقايا قصر آخر ، كان يقيم فيه حكام بنى نصر فى فصل الصيف يعرف باسم (جنان العريف) ، وقد بلغ فى زخرفته حد الروعة . وكسيت جدرانه كاملة بالفسيفساء والمرمر والنقوش بماء الذهب والمعادن الثمينة .

أما قصر (أشبيلية) المسمى (الكازار) ، والذى بناه الملك (بدرو) فى الفترة ما بين ٧٦٢ — ٧٦٦ هـ ، فقد استعان الملك بالعمال والفنانين والمهندسين من غرناطة فى تشييده ، وأروع ما فيه هى قاعة السفراء التى وجد بها كنوز فنية فريدة من النقوش ، وبخاصة تصوير الأشخاص تصويراً بأزيائهم وأسلحتهم وملامحهم ، مما يعتبر كسباً كبيراً لمؤرخى الطرز الإسلامية فى ذلك العصر المجيد ، ويطلق على قصر أشبيلية (طراز المدجنين) ، وهم الحكام المغاربة الذين استمروا فى الأندلس بعد سقوط الدولة ، وحكموا مدنهم تحت سلطة الحكم المسيحى .

المستحدثات الأندلسية

ومما هو جدير بالذكر أن بناء الحمامات ، لم يكن معروفاً فى أسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، ولذلك فالحمامات تعتبر أثراً أندلسياً هاماً ، ناهيك عن تأنق زخرفتها بشكل فنى فى غاية الجمال والإتقان . وقد ذكر المؤرخون أن قرطبة وحدها كان بها تسعمائة حمام فى عهد المنصور ابن أبى عامر . وكذلك انتشر بناء الأسواق والوكالات والفنادق ودور الضيافة والحصون ذات الأبراج المربعة (متأثرة بالأسلوب المغربى)





كما عم بناء الأسوار حول القصور وفى مداخــل المدن ، وكانت تلك الأسوار محصنة بالأبراج والأبواب الضخمة . وكانت يد الفنان المبدعة توزع اللمسات الفنية على كل هذه الإنشاءات . وبجانب الآثار المعمارية ، ظهر العديد من الفنون المعدنية والخزفية ، وكانت عبارة (لا غالب إلا الله) وهو شعار ملوك غرناطة ، تمثل عنصرا تشكيلياً استخدم كزخرف زينت به معظم الوحدات الفنية . كما تألــقت غرناطة فى إنتاج نوع ذى مستوى رفيع من الخزف تميز باللونين الأزرق والذهبى ، وهناك نوع آخر من (الخزف ذى البريق المعدنى) اشتهرت به مدينة بلنسيـة ، وكانت تصدر من هذا النوع كميات هائلة إلى معظم البلاد الأوروبية لاقتنائها كتحف فنية إسلامية . وفى عهـد بنـى نصر ، انتشرت صناعة النسيج الثمين ، وكانت تتميز بإطارهـا الخارجى ذى الزخارف الكتابية بخط الكوفى والأشكـال الهندسية التى تتخللها صور آدمية محورة .

واستخدم اللون الأسود فى تحديد تفاصيل وحداتها ، ويعتبر السجاد الأندلسى من أندر الآثار الإسلامية اليوم فى المتاحف العالمية .

لقد كانت الأندلس ، ومضة مشعة فى دروب المسيرة الإنسانية ، أنارت للدنيا كلها آفاق الفكر والمعرفة ، وإن كان العقد قد انفرط وتبعثرت حباته ، إلا أن الدرر الثمينة باقية أبدا .. تتلألأ ــ أنى كانت ــ فى وجدان البشرية !.

المراجـع (لبحث الأندلس)

- مسجد قرطبة وقصر الحمراء .
  للدكتور عبد العزيز الدولاتلى
- فن التصوير عند العرب .
  ريتشارد ايتينكهاوزر
- الشوقيات (الجزء الثانى) .
  أحمد شوقى
- العمارة فى العالم الإسلامى .
  د . فريد شافعى
- الفن عند الشعوب الإسلامية .
  د . حسن الباشا
- فنون الشرق الأوسط .
  نعمت إسماعيل علام
- قراءات متفرقة .
- The Genius of Arab Civilization, Source of Renaissance.

فهرست

رقم الإيداع : ٨٥٩١ / ٨٧

الترقيم الدولى : ٤ ــ ٠٣٤٧ــ ١١ ــ ٩٧٧